بوزيدة ملاك

رواية

يسري في خافقي

إبداع أدبي
للنشر الإلكتروني

الـــــروايـــــــة: يسري في خافقي

اسم الـــكاتـــبة: ملاك بوزيدة

تصميم الغلاف: وصال عمراني

التدقيق اللغوي: أدهم ناصر

التنسيق الداخلي: وصال عمراني

حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار إبداع أدبي للنشر الإلكتروني.

حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.

نشر إلكترونيا في 2025/07.

يمنع منعا باتا نسخ محتوى الكتاب دون إذن كتابي سواء من دار إبداع أدبي أو الكاتب

كما أن الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

للتواصل مع الدار: مجموعة الفيسبوك * إبداع أدبي *

ملاك بوزيدة

يسري في خافقي

رواية

المقدمة

أمطرت القلوب دمًا على أرضِ الحبّ

أشعلت تلك الفتاة المسكينة خصلات شعرها كفتيل شموع لتدفأ الغرفة الباردة

عزفت بأوتار قلبها لتطرب سمع من يسكنها

أراقت دمعها حزنًا على فقدان من بداخلها

تضع كرسيّها أمام الأبواب الموصدة منتظرة فتحها بحنان

بل منتظرة انبثاق النّور من الجدران المحيطة بها

امرأة قويّة شغوفة لا يخيفها أيّ كيان

فكيف لغرفة أنْ توقف إصرارها؟

وردة تغمر كلّ من يقطفها بالسعادة رغم أنّ الذّبول سيكون مصيرها

قدرها هي طيّبة تلاحق الظلام

خسرت الكثير فلم تشأ أن تخسر مرّة أخرى

الوقوع في الأخطاء لا يروق لها

في هدوء اللّيل تشعر أنّ الغرفة المظلمة تريدها

لكنّ الشرّ الذي يكتسحها يخشى النّور

أتمنى أن تعشق صفحاتي الكتابة لأنني سأبدع بالتأكيد

أيّها القارئ سوف تتمنى استكشاف الغرفة المظلمة معي

ما هذه الغرفة؟

من الفتاة التي تريد فتح أبوابها؟

الفصل 1:

روح

تأرجُح الفتى بين الحقيقة والخيال

مميّز هو ليس كباقي الرّجال

قويّ قطع أميالا وأميالا

ليحصل على بذرة سعادة

زرعها ولم يحصد سوى التّعاسة

الماضي هو من يصنع الحاضر، الوحدة هي الظّرف الذي يغدو فيه الإنسان مجنونا ومن هنا تبدأ الحكاية ...

تعالت أصوات صرخات من أحد البيوت. إنه مخاض الولادة ومع الغسق أنجبت الأم وليدها الصغير، هي روح جديدة في هذا العالم التعيس ومع ولادته حدث في المدينة كسوف، أطلقوا عليه اسمًا ليس كباقي الأسماء كان اسمه سيف ويعني القوة والشجاعة، في أوّل حضن بينه وبين والدته تساءلت في داخلها قائلة:

"ماذا سيفعل طفلي في الحياة؟"

كبر الصغير في أحضان بيت لم يكن هو مركز الاهتمام فيه رغم أنّه الابن الوحيد لأبويه بل كان شعوره بالوحدة يزداد كلّ يوم.

طفل ذكيّ يعانق الأحزان كلّ ليلة ويرتدي ثوب الصمت عند طلوع النهار، وقف أمام المرآة يحفظ تقاسيم وجهه وتساءل قائلا: "من أنا؟"

في مقلتيه سواد الليل ولمعة النّجوم وصوته معزوفة موسيقية تسحر كلّ من يسمعها، ذكائه خارق خدع به حتى كبار السن إنّه سيف.

هذه العبقريّة الغريبة التي لديه جعلت الأطفال يكرهون وجوده معهم

وجعلت كبار السن يعتقدون أنه مريض نفسي.

غريزتي المُلِحّة اتّجاه رؤية البشر يعانون جعلتهم يُحذِّرون أبي من أفكاري، اعتقدوا أنني كافرٌ أعبد الشّيطان في خلواتي، خُلقتُ من جسد أمّي لكنّها لم تفهمني كغيرها من النّاس، حقًّا من سيقف بوجه الشيطان؟

كلّما تحدّثتُ نال منهم الخوف رغم أنني طفلٌ لا أستطيع أنْ أصف لكم شعوري اتّجاه العالم لأنني لا أعرف معنى الشّعور .. ضائع وتائه أبحث عمّن يفهمني في هذا العالم، لكن لطالما أدركتُ أنَّ هذا ليس المكان الذي أريده ولا الأشخاص الذين أتخيلهم، أخرج إلى الحيّ فلا يراني أحد فلم تكن تجذبني أفكار الأطفال، لأنَّ السّذاجة تسبح في عقولهم ولم يُثر أحدهم اهتمامي، يضحكون ولا يعلمون، يمرحون ولا يتوقفون، لا يدركون حقيقة العالم التي اكتشفتها في سنّ العاشرة. بلورت شخصيتي وسبقت سنّي بمراحل والعقل الجالس في رأسي حمل ذكاء لاحظه من حولي ولم يجاروه، ينعتونني بغريب الأطوار والوحش لأنني أضرب من يزعجني أصرخ في وجه من يقلق راحتي، مضت الأيام واستمرت محاولاتي للولوج في عالمي والتحاور مع الآخرين، في كلّ مرة تزداد السطحية التي بيننا ليصبح الرّابط بيني وبينهم متين فلا يُقرّبني منهم ولا يبعدني عنهم.

بقيت في المنتصف حتى قالوا عنّي غريب، لقد كانت الغابة رفيقتي .. حاولت أن تخنقني بأغصانها أكثر من مرّة، أراد ترابها دفني ولم يستطع. العالم أجمع حاول أن ينهيني بشتى الطرق وحياتي استمرت على هذا النحو أركض في الزقاق دون شغف، أرسم الخطط دون هدف عشر سنوات ولم تتحرك مشاعري اتجاه شيء، أغتنم كل فرصة أجدها للتقليل من البشر.

وفي ذات الوقت أبحث عن الرّضا التّام عن نفسي أريد ذاتا قويّة صلبة. أسير دوما نحو المجهول رغبة في تعلّم المزيد وفي كشف الغموض الذي يلف عالمنا وأيضا رغبة في تجربة الشعور حيث يقول برغسون "الشعور كالنّهر المتدفق الذي لا يعرف التوقف دائم الجريان وإن تدنى مستوى تدفقه يبقى موجودا، فالشعور كهذا النّهر لا يعرف الوقوف ينخفض إلى درجات متدنيّة لكنه لا يغيب" مقولة جميلة أطمح وأسعى لإثباتها أو نفيها، أريد أن أرى هذا النّهر داخلي. كلما رأيت الصّغار يركضون نحو أمهاتهم ويشتاقون لهنّ أدرك أنني كنت وحيدا منذ أولى خطواتي فلا عزّني أب ولا منحتني الحبّ أمّ. لا أريد أن أضع نظرة سطحيّة حول العالم بل أريد الغوص فيه أكثر فأكثر فلست أنا رمزا للعنف فهذه الكلمة صنعوها من قبلي وتركوها لنا، فهذا العالم منذ بداياته حكمه العنف ورضى البشر بتلك السيطرة إلى حين طويل لست أنا الشر، فهذه الأرض أنجبت من هم أكثر مني ظلاما و شرّا أنا مجرد طفل يهيم في الدنيا يبحث عن أجوبة تساؤلاته فإن كنت مخطئا سأعترف وإن كنت على حقّ سأتشبث بما قلت وفعلت ..

اليوم ومثل كلّ يوم كنت في الغابة أحاور الطبيعة التي اعتبرتها الصديق الوحيد لروحي وفجأة أمطرت السماء وكأنها تطردني من منزلي الثاني. قرّرت حينها العودة إلى الديار قبل أن أتبلل بدمع السماء، تسللت من بين الأشجار وعدت مسرعا إلى المكان الذي لم يكن سوى قبرا أدفن فيه نفسي، دخلت وكالعادة لم يهتم بعودتي أحد لكنّ المميز اليوم أنه كانت هناك رائحة قوية في الأرجاء إنها رائحة الموت. دفعني فضولي لأرى ما بالداخل فلمحت دجاجة قد نحرت وتمّ فصل رأسها عن رقبتها. منظر شنيع وجميل حرّك بداخلي شعورا غريبا، سيّء لكنّ فرحتي كانت عظيمة. يا للعجب حرّكت الدجاجة جوارحي! عدت

إلى غرفتي نصفي ميّت ونصفي أحياه الجنون، نعم إنه الجنون كم أريد رؤية الدماء مرة أخرى. تسلّلت إلى المطبخ خفية وسرقت سكين الخضروات وعدت إلى غرفتي مرة أخرى وباشرت في جرح بطني لقد مررت السكين ببطء على جسدي ولمحت ذلك اللون الأحمر الذي خلق بداخلي شعورا لم يكن بالحسبان، شعرت بالارتياح رغم أنّ جسدي يتألم بسبب وجود آلة حادة تتراقص عليه، أغلقت الجفون وسافرت إلى عالم الخيال وتساءلت: "ترى ماذا سيكون شعوري لو قتلت إنسانا؟"

أفكار غريبة تجول في ذهن طفل، يبدو أنّني ذكيّ كما قالوا وهذه الميزة دفعتني لفقدان عقلي أو ربما وحدتي التي تأسرني لكنني حقا سعيد بأفكاري كيف لا وقد اجتاحتني مشاعر لأوّل مرّة. ضاق صدري قليلا وشيء ما كان يطمئنني، أكاد أوقن أنني متناقض، هناك شخصان بداخلي طيّب يبعدني وشرير يدفعني، صرت تائها الآن بين أنا وأنا، كنت أشغل أوقاتي بالهروب إلى الغابة لكنّ فصل الشّتاء الذي طرق الأبواب دفع بي إلى المكوث بالمنزل، والآن ما الذي سيشغلني؟.

نزلت من السّلم ورأيت المكتبة التي في غرفة المعيشة لأوّل مرّة وكأنّني أستكشف المنزل الذي ولدت فيه، رنوت نحوها لأشاهد الكتب ربما أجد ما يجذبني بين هذه الرفوف التي تحمل كتبا عتيقة يسبح التراب في صفحاتها .. لقد وقعت عيناي على رواية "جثة في المكتبة" لأجاثا كريستي. حملت الرواية وجلست على الأريكة أطالعها فأثارت في جوفي نفس المشاعر فكلّ حرف يحمل بداخله رعبا وكلّ صفحة كانت تعلّمني كيف أصبح قاتلا محترفا، أعرت هذه الكاتبة اهتمامي فأنهيت كلّ مؤلفاتها في أقل من شهر. تعلمت خطط القتلة، أسرارهم، ثغراتهم والآن أفكر في التخطيط لجريمة شنيعة لكن من الضحية؟ ...

نورة: "سيف ولدي قرّرنا السّفر اليوم أنا ووالدك إلى منزل جدك وعليك البقاء هنا".

سيف: "ما الذي يمنعني من مرافقتكم أماه؟"

نورة: "آخر زيارة لنا جعلت الجميع يتهامسون عنك قائلين أنك تعبد الشياطين وتحاورهم. لا أريد إخافة الناس بغرابتك ستبقى في المنزل إلى حين عودتنا."

تبّا لها ولهم يكتسح الجهل عقولهم ويظنون أنّي غريب لمجرّد كوني عبقريّا بالنسبة لغبائهم.

سافر الجميع وبقيت وحدي تحيط بي جدران المنزل الكئيب، تجولت فيه بملل وقررت النّوم قليلا فلربما أهرب من هذا اليوم الذي لا ينتهي، أغلقت عيوني ولم أنم ورغم أنّ الغرفة مظلمة إلّا أنني لمحت الخيال لأوّل مرّة شعرت بقوّة غريبة معي في الغرفة لم يكن بشرا بل كان ظلّا يقف فوق رأسي يراقب نومي، لم أشعر بالذّعر فالخوف يخاف مني، فتحت مقلتي فاختفى من كان يتجسس عليّ، أشعر بوجوده معي لكنني لا أراه. يرافقني في كلّ أيّامي إنه صديقي الخيالي الذي أسميته بالكيان، يبدو أنه سيكون معي أثناء غياب أهلي في ليلي وحين طلوع نهاري، لم أخبر أحدا عنه ولم أشعر بالفضول اتجاهه بل تركته يسكن أضلعي وجسدي، كان غياب أهلي غريبا رغم أنّي لا أعرفهم فالوحدة توقظ في البشر مشاعرا لا يمكن الهروب منها أو حتى تخطيها وقد أيقظت بداخلي الجنون. بدأ عقلي يفكر كعادته والدموية التي أهواها قد أفقدتني صوابي جعلتني كائنا يريد إشباع تلك الغريزة التي تسبح بين شرايينه، خرجت من المنزل ورحت أتجوّل بين الأزقة بملل وأنتقل بين شوارعها كأنني ثمل شرب من الخمر الكثير فصادفت في آخر الشارع ما لم أكن أتوقعه .. قطة تئن وتموء بضعف من شدّة الجروح وكانت تزحف ودمها لطّخ كلّ المكان،

شعرت بالسعادة بهذا المنظر الرهيب إنها قطة تتألم يا للروعة! ولأنّ روحي كانت تخطّط للقتل في تلك اللّحظة قرّرت تخليص الحيوان من عذابه بموت رحيم، لم أفكّر في أيّ شيء وقتها غير أنّ هذا الحيوان يحتاجني لخنق دقاته وإسكات وجعه، لقد كان أنا الآخر هو من يحركني لفعل هذا، صوت ما بداخلي كان يردد أقتله أقتله ... إنه الكيان بداخلي، لقد حملت الحجر وباشرت بتحطيم عظام هذه القطة إلى أن لفظت أنفاسها بين يدي وباشرت في إطلاق ضحكات ساخرة لا تعبّر عن ندم يختلج روحي.

أكملت سيري في الحيّ وقرّرت دخول الغابة بحثا عمّا يملئ وقت فراغي، هناك حارس يسكن في قلب الأشجار فكّرت في الذهاب إليه ربما مقابلته تنسيني وحدتي الخانقة. كلما اقتربت من منزله اقتربت منّي رائحة سيّئة جدّا لكنني أكملت طريقي بخطوات مثقلة نحو منزل الحارس وما إن وصلت حتى صفعتني رائحة الموت نفسها تلك التي كانت بالمطبخ حين ماتت الدّجاجة، فتحت الباب بحماس وتفاجأت بالحارس ملقى على الأرض لقد وافته المنية على ما أظنّ فلم يحرك ساكنا وكان وجهه شاحبا وأزرقا تنبعث منه رائحة قوية جدا، لم أشعر بالأسى عليه رغم أنه كان يسلّيني في أوقات فراغي بل رنوت نحوه أتأمله بشغف فهذه أوّل جثة بشريّة أراها بمقلتي إنها جثة الحارس.

بعد مرور أكثر من ساعة وأنا أجالس الميّت قررت إخبار أحد عنه، بدأت في الهرولة في الغابة وبين المنازل وجدت شرطيّا بالصدفة وأخبرته عن الذي وجدته، استغرب من كلّ ما تفوهت به و أطلق قهقهات وتحدث قائلا:

"يا لها من نكتة! عد إلى منزلك أيها الصغير واستمر بالضحك."

قرّرت حينها إخراج شخصية الطّفل التّافه وبدأت بالبكاء وأمسكت الشرطي من يديه وطلبت منه أن يتبعني، أخذته إلى منزل الحارس وكلّي ثقة أنّ الجثة تنتظرنا هناك، لم يستطع الزائر الذي معي إكمال المسير بسبب الرائحة المنبعثة ورأيت على ملامحه الخوف يبدو أنه أحس بالموت القريب هو الآخر، و أخبرني أنّ علينا العودة وإخبار المحققين والمختصين لقد ترك الطريق في منتصفه.

أما أنا أمضيت يومي وليلتي بالتجول في شوارع المدينة لا رغبة لي بالعودة إلى الغرفة والمنزل.

لقيت توبيخ أمي فور عودتي لم أنم تلك الليلة فالجثة لم تفارق عيني فموضوع القتل هذا أثار اهتمامي منذ عدة أيام ..

الفصل 2 :

لا تخف

مشكلتي أنني فقدت كل شيء يراه الناس له قيمة، المشاعر، الحب، الرعب، جلست أمام المحققين أمثل عليهم دور الخائف وأحكي لهم قصّة الحارس الذي مات في منزله، كان استجوابا عاديّا كوني الشاهد الأول على هذه الوفاة وأوّل من وجد الجثة. طفل صغير ينظر لمحقق كبير ببراءة ورقة يرتعش من شدّة الخوف كان هذا ما يبدو لهم ولهذا لم يطيلوا البقاء معي وصدّقوا القصة التي قلتها لهم على الفور، سمعت أثناء خروجي من قسم الشرطة أنّ الحارس العجوز مات من شدّة الجوع والبرد لأنّه وحيد في ذلك المنزل وسط الغابة والأشجار، تلاشى انبهاري فقد ظننت أنّ في القصة جريمة وقاتل.

هطل على رأسي التّوبيخ كالمطر، كانت أمّي التي وقفت أمام باب المنزل كضابط في القوّات الخاصّة تُحقق معي بعصبية وانفعال بعد أن جرّني رجال الشرطة من مضجعي إلى التحقيق، طلبت أمي مني ألّا أقحم نفسي في المشكلات ثانية، تجاهلتها ودخلت إلى غرفتي كأنها غير موجودة ما أثار غضبها أكثر وقرّرت معاقبتي بالبقاء في غرفتي إلى أن ينتهي هذا الأسبوع وأعود للدراسة. إنّ ذاكرتي تصرّ على الصراخ والكيان الذي بداخلي يستمر في كتم أنفاسها، وتستمر الحياة في إقناعي أنّ الشرّ وليد المجتمع، تمنّيت أن تضمني أمي إلى صدرها وتطبطب على رأسي وتسأل عن أحوالي في النهاية أنا طفل رأى جثة، لكنها لم تفعل واكتفت بمعاقبتي وتوبيخي، لن أشعر بالعجز أبدًا فهمت اليوم حقيقة عالمي، هل يصدقون حقا أني وحش؟، لقد فسّرت الأمور كما أراد كياني وكما أرادت أمي

ليس كما أراد سيف، ليس للضعيف قرار، أمضيت ما تبقّى من أيّام عقابي داخل غرفتي أحدّق في الجدران وأقرأ الكتب، أكاد أوقن أني عجوز يهوى رؤية الكتب العتيقة بين يديه، زادت الفجوة بيني وبين أفراد الأسرة وأصبحت وحيدا يأكلني الملل ويسري داخل شراييني الظلام، ها أنا ذا ارتديت ثوب الحقد رغبة في السّعادة طالعت الكثير من الكتب وشغلت أوقات فراغي بالإجابة على بعض التساؤلات التي تحوم في عقلي صنعت لنفسي عالما آخر إنه عالم الخيال أعيشه دون مكابح أو قيود، مضت الأيام الثقال وخرجت من السجن الذي كنت أسيرا فيه لعدّة أيّام لقد نجوت بأفكاري من تلك الوحدة التي كانت تحاصرني وحافظتُ على الكيان الذي يسري في خافقي دون أن أقيّده بل منحته الفرصة ليطلق عنانه بداخلي، و في زيارة مفاجئة لعائلة عمّي قرّرت الجلوس معهم بعض الوقت لربما أسخر من عقولهم الصغيرة، جالستهم مليا واستصغرت شأنهم، كان عمي بشوشا معي رغم فضاضتي لكنّ أطفاله ما لبثوا إلّا ساعة واحدة ثم تركوا المجلس وانصرفوا، أما أنا وعمي أكملنا الحديث عن الأدب والفلسفة، كان مثقفا أخبرني أنّ على المرء الارتطام في الأخطاء أحيانا ليُصّحح مساره .. فكلّ ناجح في هذه الحياة صنع نجاحه من أكداس أخطاء، أخبرني أنّ حقيقة الحياة لا يكتشفها المرء إلا بعد معاناة.

قاطع أبي حوارنا الشيق وطلب مني إحضار دلو ماء من البئر، طلب عمي الذهاب معي وهززت رأسي دلالة على الموافقة وسرت معه إلى الخارج وصولا إلى بئر قريتنا، هطل الغيث في الليلة الفارطة فأصبحت الأرض موحلة، وقفت وعمي أمام البئر وأثناء إنزاله للدلو انزلق معه وسقط داخل المياه، صرخ عمي طالبا مني النجدة، وفي تلك اللحظة صار صوته الخائف معزوفة موسيقية لكياني، وتسمرت في مكاني أراقب عذابه داخل البئر

إلى أن شعرت أنّ عليّ مساعدته وإلا وقعت في مأزق، أسرعت إلى المنزل وأخبرت أبي وباشر هو والجيران في مساعدته وإخراجه بعد أن فقد وعيه، شعر الجميع بالذعر خاصة أطفاله أما أنا عدت إلى غرفتي دون أن أزعج نفسي بهم وبخوفهم.

لأوّل مرّة أرى الرياح تهبّ نحوي لقد تنشب الكيان بي، بدأ الصراع بين سيف الذي يمثل الطيبة والكيان الشرير الذي جعله يغرق في نوم طويل بل موت مؤقت، لأوّل مرّة أشعر أنّ الفعل الذي قمت به خاطئ ماذا لو مات الرجل؟

استفرد بي عمي قبل أن يغادر المنزل وقال لي أنه يظنّ بي خيرًا قال أيضا أنه على ثقة بأنني فزعت من منظره وهو يغرق ولهذا لم أبادر بالمساعدة وتسمّرت في مكاني وعدني أنه سيحفظ سرّ ما حدث ولن يبوح به حتى لوالدي، لم أهرب من التّوبيخ رغم أنّ السرّ حفظ كان أبي في قلق من تصرفاتي الفضة اتجاه أبناء أخيه، أراد مني أن أصبح رجلا مهذبا لطيفا ولو تظاهرت بذلك ..

انقضى الأسبوع وعدنا إلى مقاعد الدراسة، كنت منبوذا أجلس وحدي وكلّ زملائي ينفرون مني كلما لمحوني لكنّ الأساتذة ورغم كرههم لتعجرفي كانوا دائما ما يثنون عليّ وعلى ذكائي فقد كنت متفوقا في دراستي ما زادني غرورا وكبرا.

الفصل 3:

عقاب

كلما توفرت لي فرصة لخدش كبرياء الآخرين لم أهدرها

فهذه المواقف هي التذكارات التي سأحملها معي دائما فهي التي ستصنع مستقبلا أتوق إليه، كنت في المدرسة مثل كلّ يوم لكن هذه المرّة أحد الأطفال جلس معي وحاول محاورتي لكنني أبيت النظر له حتى وجدت آلة حادّة في الساحة وقت الفسحة حملتها وطلبت منه أن يجرح نفسه بها لكنه رفض مددت الآلة الحادة وضغطت عليها فوق جلده الرقيق صرخ بصوت عالي سمعه كلّ من في المدرسة وتجمعوا حولنا يراقبون ما أفعله بالولد الصغير، لقد أحدثت له جرحا كبيرا أقسم أنه سيبقى ندبة تلاحقه طوال حياته وتعلمه ألّا يثق بالغرباء والمجانين وأنتم أيضا لا تقتربوا من شخص يحذركم جميع من حولكم منه كي لا تقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه هذا البرغوث الأحمق، أكملت الضغط على يد الصغير حتى اخترق الزجاج يده وتدفق سائل دافئ عليّ وعلى ثيابي وعليه إنها الدماء .. لونه .. رائحته .. منظره يحرك داخلي مشاعرا أحبها وأهوى رؤيتها كل يوم، وقف ورائي أستاذ الرياضة وطلب مني ترك الولد لكنني أبيت تركه سحب من يدي الزجاجة ودفعني على الأرض كنت غاضبا حينها من هذه الإهانة لكنني التزمت الصمت ماهي إلا ثواني حتى خرج جميع الأساتذة ومعهم المدير وطلبوا مني الذهاب إلى غرفة مدير المدرسة، علمت حينها أنّ عقابا جديدا سيكون من نصيبي في هذا اليوم، قررت اصطناع هجوم مخادع ضدهم وتظاهرت بالبراءة والخوف والذّعر، بكيت وذرفت العبرات من عيوني لكن لم يصدّقني أحد يد الولد شاهدة ضدي، يبدو أنني اكتسبت جرأة في

الحديث. حين حضر أبي إلى المدرسة اعترفت أنني حقا مزقت شرايين الفتى وآلمته، أخذت إحدى المدّرسات الولد لأقرب طبيبة أعشاب في القرية وأراد والده ضربي حين سمع بالقصة وعرف ما حلّ بولده، أمّا أنا فقد تمّ فصلي من المدرسة لمدة شهر كامل. حين عدت إلى المنزل في مساء ذلك اليوم تظاهرت بالنّدم لكن لم يكن ندمي المزيف حاجزا في وجه عقاب أمي، منعتني من المطالعة وضربتني بالعصا ضربا مبرحا إلى أن اكتسح الذلّ ملامحي ومزّق الألم جوارحي وكل هيبتي التي امتلكتها قد ضاعت في نظري، اخترق صوت صراخي الجدران لكن لم تتوقف عن ضربي، حين نال مني التّعب والألم أوقفت عذابها، قلت لها بصوت خافت:

"قد أكون ساذجا لو صدّقت أنك أمّ".

لمحت في عينيها لمعة دموع لم تسقط. منذ ذلك اليوم انطويت على نفسي داخل غرفتي ولم أخرج إلّا لتناول الطعام أو تلبية فرائض الصلاة ولم أحدث أمي أو أبي تعاملت وكأنني كائن مخفي لا يسمع له صوت ولا خطوات، شخص ليس له وجود وكم كنت معجبا بوضعي هذا فهو طريقي نحو الشخصية التي أريد واصلت الدراسة وحدي في البيت كي لا يتراجع مستواي

فقد كنت عاجزا عن الخروج من المنزل ولا شيء بيدي أفعله سوى الدراسة

مضى شهر كامل ولم يغير هذا العقاب لا وقاحتي ولا فضاضتي عدت إلى المدرسة بنفس الغرور والتكبر والتعالي خصوصا أنّ جميع الطلاب كانوا خائفين مني لم يجرؤ أحدهم على رفع ناظريه نحوي أو حتى الحديث معي بكلمة واحدة وزادت الفجوة التي بيني وبين بقية أقراني وبقيت وحيدا كما أردت تماما والكيان فقط من يرافقني، أجريت جميع

الامتحانات وخرجت منها بامتياز كانت أمي فخورة بتفوقي وفي نفس الوقت منزعجة من تصرّفاتي وحاولت أن تغيّر طبعي ولم تستطع فأنا مصرّ على البقاء هكذا أرى الوحدة تسيطر على جسدي حتى أصبحت مرغما على البقاء بمفردي كان هذا ما يصنع بداخلي السعادة وما أجمل أن يعانق الشخص نفسه بعيدا عن البشر.

الفصل 4 :

سنوات عزلة

فتى يعرف أنّ للسّعادة سبيل لكنه نسى

فاختار الوحدة وبات في أسى

يحكمه الشر وما من هدى

يقطن داخل غرفة يموت فيها ولا يحيى

ظلام يسكنه يدفعه لأن يشقى

وأنكر أنّ في القلب طيبة لا تخفى

سنة 2004

العراق

قبل سنة واحدة شهدت العراق تغييرات كثيرة مست الدراسة وحياة الناس بسبب الغزو الأمريكي على البلاد، أوصدت المدارس والجامعات أبوابها في وجه كلّ من أراد العلم، أصبحت الأرض في شوق لحضارة بابل وفي حنين للكتب، صار سيف شابّا في العشرينات حادّ الملامح طويل القامة أسود الشعر والعيون، أما طباعه فقد بقيت على حالها حادة كملامحه، أراد إكمال دراسته لكنّ الأوضاع حالت دون ذلك لم يُكوّن صداقات طيلة السنوات الفارطة، كان يتجول وفي يده الكتب أما نورة اعتادت على لطم خديها كلّ صباح بسبب حزنها على أوضاع سيف فرغم فخرها به لكن تمنت لو أنّ لديه رفيقا واحدا يخرجه من عزلته وانطوائه.

بنى سيف لنفسه منزلا صغيرا داخل غابته المفضلة ووضع داخله الكتب والروايات والمعاجم، فهذا المنزل هو المكان الذي يمضي فيه أغلب أوقاته دون أن يعكر صفو حياته أحد، في صباح أحد الأيام ارتدى دشداشة سوداء وخرج مسرعا من منزله حاملا بين يديه آلة الكمان بعد أن أتقن العزف عليها، توجه نحو مسكنه وجلس أمام شجيرات قريبة منه يعزف في هدوء اصطف الطير والحمام على أغصان الأشجار ليطرب سمعه ويبدو أنه جذب بأوتاره زائرا آخر غير الحيوانات. بمجرّد إكماله للعزف نطق من خلفه صوت عذب ورقيق وقال في استحياء:

"هل تعلم أنّ هذه الخشبة التي بين يديك تبلور شكلها في ورشة اندريا اماتي؟"

التفّ سيف نحو من يكلّمه في عجالة وغضب ليجد حسناء الجمال بل حوريّة تنظر له بعيون لامعة وزرقاء تبدو كالسماء في أيّام الصيف الصافية لقد بدت أمامه في عباءة سوداء وخيمار أسود زادها جمالا، عطرها فوّاح كالورود وصوتها عذب يخترق النفوس، لكنّ شكلها البريء لم يشفع لها أمام سيف الحاد ولم يعرها اهتماما واكتفى بقول:

"أعلم".

كيف لا يعلم وهو الذكيّ العبقريّ الذي قرأ آلاف الكتب؟ نهض من مكانه تاركا الفتاة في حيرة واتخذ سبيله نحو قريته، لم يتكلم مع أحد من المارة بل سار في صمت وسكون، اصطدم به أحد الشبّان عمدا وجرت بينهما مشادة كلامية، قال الشاب:

"أريد أن أجرب شعور لمس وحش".

ردّ سيف بوجه مكفهر: "لا تجرّب غضبي إذا".

ضحك الآخر باستهزاء وقال: "أ أخاف منك؟"

انقضّ سيف عليه ولكمه في وجهه فسقط أرضا ثم خنقه بيديه ... تسمرّ الشاب في مكانه وبأنفاس متقطّعة كان يطلب النجدة، تكأكأ الناس عليهم وبصعوبة أبعدوا سيف عن الشاب الذي كاد أن يرى المنية بعينيه، لفظ أنفاسه بصعوبة وهرب من المكان. لقد فرّ بحياته قبل أن يخلّصه منها الوحش الذي أمامه.

وقفت الفتاة التي التقى بها سيف في الغابة بعيدا تشاهد ما يحدث، لحقت به تودّ معرفة مكنون ما حصل، سارت ببطء من خلفه لم ينتبه لها، نادته قائلة:

"يا صاحب الكمان ..."

زمجر فيها بعصبية: "ماذا تريدين؟"

اندفعت نحوه قائلة: "أ أنت بخير؟"

حاول سيف كبح أعصابه وردّ عليها بهدوء: "نعم."

أردفت هي: "أريد أن أخبرك أنّ إسمي قمر يسعدني أن تكون صديقي".

ضحك من طلبها الغريب الذي لم يجرؤ أحد عليه وقال بتهكم: "حقا!"

ثم غادرها تاركا إيّاها في حيرة مرّة أخرى.

همّ سيف بالعودة إلى المنزل مشى كالبركان الذي يريد أن ينفجر وفور دخوله إلى بيته وجد والديه منزعجين من تصرفه اليوم يبدو أنّ خبر الشجار قد وصل إليهم كيف لا وقريتهم صغيرة وكلّ شخص يعرف الآخر، وقف يحدّق بهما وقال:

"لن يصدق أحدكما أنه استفزني، كلاكما الآن يفكر أنني ظلمته، لا فائدة من الحديث، لهذا قررت الاستقرار في منزل الغابة."

لم يردّ سيف على أحد وصعد إلى غرفته ونزل مرة أخرى حاملا أمتعته وغادر المنزل دون أن يتفوه بحرف واحد.

لثواني عديدة بقي في الردهة يتأمل النجوم يحاور كيانه الشرير قائلا في نفسه:

"أظنّ أنّك على حقّ لن نربح لو كنّا أبيضان، سأحتضنك يا كياني ولا يهمني إن كنت شيطانا."

تحدثت نورة مع زوجها بانهيار: "إنه فلذة كبدي وصغيري الوحيد كيف يترك البيت هكذا؟"

ردّ سالم: "هو ابني ولكن لا نعرفه بحقّ دعيه يفعل ما يريد".

أمضى سيف ليلته التعيسة دون أن ينام، دارت في رأسه عديد الأحداث وبين الفينة والأخرى فكّر في قتل الشاب الذي نشب الشجار، أكلته نيران الغضب، كبت في صدره تلك الشرارات حتى بزغت الشمس

وفي منزل آخر كان هناك من لم ينم إنها قمر التي كانت تفكر في أمر الشاب العازف لقد جذبها ولم تستطع نسيانه، استغربت شخصيته فهي لم تر بمثل عصبيّته وعلى خلاف سيف الغاضب كانت قمر تشعر بالسعادة كلما تذكرته وكانت تريد رؤيته مرة أخرى فهي على يقين أنّ داخله ملاك نائم لا يهوى الشجار.

لقد عشت في بغداد تسعة عشرة سنة وأرغمت على العيش في بيت خالتي بعد وفاة أمي وأبي، أيقظ صاحب الكمان داخلي فضولا ليس عني بمنجلي، أنا لا أعرف اسمه ولا أعرفه لكنني أريد رؤيته، حضرت فطور خالتي وابنها ورتبت فراشي وخرجت للتجول في الغابة ربما ألتقي بطويل العماد وكما توقّعت كان جالسا في نفس المكان يعزف بآلة الكمان، سمع خطواتي نظر نحوي باستغراب لم أجرؤ على وضع مقلتي بمقلتيه بل هويت بنظراتي نحو الأرض خجلا منه.

قال: "اجلسي"

صمت كلانا برهة ثم قلت: "ما اسمك؟"

قال: "سيف"

قلت: "تخرج هالة سوداء منك"

قال: "أعلم أنّ رغبتك الملّحة في معرفتي وفكّ الألغاز عني هي التي جعلتك تجلسين أمامي الآن"

أردفت قائلة: "ربما".

ردّ عليّ: "أنا شيطان يلقي بلعنته على كلّ من يراه".

قلت: "أرى عكس ذلك في مقلتيك أرى طيبة نائمة وفتى سكن الشر في صدره لكنه لا يريده"

رد: "هه حمقاء"

عدنا إلى الصمت ثانية هو لا يريد سوى إخفاء الحقيقة وينكر أنّ في القلب طيبة لا تخفى، كانت الأفكار والأسئلة تجول في عقلي، قطع سيل أفكاري سيف وهو يقول في

نفور: "اسمعي لا أفهم موقفك ما الذي يدفعك لمعرفة شاب رأيته يعزف ولا تعرفين عنه شيئا غير هذا"

أضفت: "لا أدري، أفعل ما يدفعني عقلي لفعله دون إدراك العواقب".

سيف: "أريد الذهاب، عليك أن تعلمي أنني شخص شرير يميل للظلام ووجودك بمقربة مني لن يفيدك.

لم يسمح لي حتى بالدفاع عن موقفي أو حتى نفي ما قاله لقد غادر دون أن يصغي لكلمة مني ولكنه على حقّ. ما الذي يدفع بفتاة لمطاردة شاب رأته مرّة واحدة؟ الشيء الوحيد الذي أشعر به أنّ هذا الفتى يهمني ولن أتركه لأفكاره وإن أراد هو ذلك. قرّرت العودة إلى المنزل وأنا أراقب سيف من بعيد، رمقه جميع الناس بنظرات غريبة وتهامسوا عنه قائلين أنه وحش لا أعلم ماهية الذنب الذي اقترفه هذا الشاب ليكرهه الجميع بهذه الطريقة ويتركونه وحيدا. وصلت إلى منزل خالتي والخذلان يأكل قلبي وما إن دخلت حتى دوى صوت صراخ: " أين كنت؟"

كان سامر ابن خالتي، ماذا يريد مني و ما دخله بي؟ لم أجبه وصعدت نحو غرفتي ولم أسمع سوى أنه يشاجر خالتي ويلومها لأنها قرّرت الاعتناء بي، أرقت دمعي حزنا على فقدان أمي وأبي ونمت تلك الليلة حزينة في قلبي العديد من الكلام المحبوس ، أصبحت ثقلا على قلب خالتي وأخذتني إلى جانبها غصبا عنها أنا أيضا هنا رغم أنني لم أرد هذا ولكنه القدر هو من قادني إلى هذا المكان، نمت تلك الليلة بصعوبة ورأيت أحلاما كثيرة كان فيها أمي وأبي كم اشتقت لهما، استفقت فجرًا فتحت النافذة نظرت إلى السماء وقدمي تطأ الأرض بصعوبة أظنّ أنني مرضت حلقي متخشب والحرارة تلهب جسدي،

جلست في سريري أطالع قصص ألف ليلة وليلة حتى استيقظ أهل الدار، دخلت خالتي إلى غرفتي وهي تنفث النيران كالتنين من شدّة الغضب تطلب مني تحضير الفطور وغسل الصحون أعلمتها أنني مريضة ولكن ما من جدوى، أصرّت على عملي، فعلت ما أرادت فقد كانت تهددني بالطرد من المنزل، أما ابنها فكانت نظراته غريبة كأنه يحيك لعمل شيطاني، لم أعره أيّ اهتمام. حضّرت الطعام وكويت الثياب وغسلت الأطباق، وفي نهاية اليوم توجهت نحو فراشي وقد أعياني التعب، نظرت إلى المرآة وجدت وجهي أحمرا ملتهبا، أين أنتِ يا أماه؟، تذكرت أمّي التي كانت تضع الكمّادات الباردة على وجهي كلما مرضت، جلست ألعن حظي وألطم قدري الذي جاء بي إلى هذا المكان، أخذ مني التعب ما أخذ وغرقت في نوم عميق.

"هل يروق لك هذا يا سالم؟"

"وما عساي أفعل يا نورة؟"

كان الأبوين منزعجين أثناء تناولهما للطعام بسبب غياب سيف، و كان يبدو على نورة الاستياء أكثر تزمجر في غضب وتلقي باللوم على زوجها

"لئن لم يعد ابني لسوف أقتل نفسي"،

كان هذا آخر ما قالته المرأة ثم تركت الرّجل وحده لا شهيّة له لتناول لقمة من أصناف الطعام الموضوعة أمامه وقال في نفسه:

"تذكرتْ الآن أنّ عليها الاهتمام به"

ثمّ خرج من المنزل ذاهبا إلى ولده ربما يعود معه إلى مضجعه الدافئ، شقّ طريقه نحو المنزل الصغير وما إن وصل حتى طرق الباب بقوّة، فتح له سيف ودخل كلاهما، لم يعر الشاب والده أدنى اهتمام بل استمر في تقطيع البصل كما كان يفعل، جلس والده على مقربة منه وقال في تحسر:

"أ يروق لك هذا الوضع يا ولدي؟ عد معي والدتك أقسمت على الموت إن لم تعد معي."

لم يحرّك هذا الكلام شعرة واحدة من سيف وكان يتصرّف كما لو أنه لوحده وعامل والده على أنه وهم يحدثه وهو أصم لا يسمع من الكلام شيئا. نال الغضب من سالم وانقض على ابنه دون أن يشعر ومدّ يده صافعا إيّاه بقوّة. لم يردّ عليه سيف بل كانت الحرارة تسري في جسده والغضب ينزل من رأسه إلى أخمص قدميه، كما لو أنّ صعقة أصابته وليس مجرد صفعة.

غادر الأب المسكين المكان وترك سيف بعد أن جثى على ركبتيه يجمع شتات نفسه، يستوعب ما حصل .. صفعة .. حرارة .. بركان .. ونقص أكسجين.

الفصل 5 :

جس نبض

جلست بجانب خالتي أقشر البطاطا وفتحت معها حديثا حول هذه القرية أنوي من خلاله سؤالها عن سيف طلبت منها أن تحدثني عن جميع السكان لأنني أريد التعرف عليهم، تجاوبت معي وأخبرتني قصصا عنهم جميعا فردا بفرد إلى أن وصلت إلى منزل السيدة نورة أخبرتني أنها طيبة هي وزوجها لكن ولدها غريب أطوار، مزّق يد سامر واخترق عظامه بقطعة من الزجاج، فعل عديد الأمور السيئة والشريرة حتى ابتعد عنه الأطفال والكبار وبات وحيدا، مسكين سيف يعيش ألم الوحدة بأقسى طريقة. حملقت في خالتي والشفقة تعلو ملامحي، حذرتني من الاقتراب من سيف أو الحديث إليه، كنت أنوي إخبارها أنني التقيته لكن تراجعت عن ذلك خشية أن تمنعني من الخروج وتحبسني في البيت، تنهدت و أكملت عملي بضجر، كانت حياتي مثيرة وممتعة حين كنت في بغداد والآن وجدت الحماس في سيف كم أريد استكشاف هذا الشاب ومعرفة خبايا نفسه وما يضمره في جوفه من أسرار، حضرت الطعام. جلست في غرفة المعيشة أطالع رواية كانت تحبها والدتي وأمامي كوب من القهوة، دخل سامر وألقى عليّ السلام ثم جلس على الأريكة التي بجانبي وأراد ارتشاف بعض القهوة لكنه أسقط الكوب من يديه وانكبّ على دفتر والدتي، شعرت بالحزن وبدأت بالنحيب وصرخت في وجهه مؤنبة إيّاه على هذا الفعل. جاءت خالتي على صوت شجارنا لتفهم ما حصل ردّ عليها بسخرية:

"تبلل دفترها العزيز بالقهوة"

قلت له بغضب: "لن تكون أهلا لتفهم ما تعنيه هذه الأوراق لي أبدا، أنّى لك أن تفهم؟" وأخذت الدفتر المهترئ وعدت إلى غرفتي والدموع تتساقط على وجنتي كالمطر، نزعت حجابي واحتضنت الدّفتر أتذكر والدتي كم كانت جميلة ولطيفة، كم كانت تحبني. لكن ذلك الحادث أخذها مني وأبعدها عني، كان أكبر مخاوفي الوحدة وها قد بقيت وحيدة دون أمّ تعطف وأب يحنو، شعرت بدقّ خفيف على الباب استأذنت خالتي للدخول سمحت لها وعدت إلى رشدي، جلست خالتي تسرّح شعري وقالت لي:

"أقسو عليك أحيانا لكنك قطعة من أختي امسحي دموعك وابتعدي عن الماضي فكلنا ذاهبون إلى الموت"

لكنني أشعر بشوق عظيم إلى أمي تلاشى الأسى من قلبي ووضعت حجابي ونزلت مع خالتي لأتأسف من سامر، لم يرد عليّ وغادر المنزل لتأدية الصلاة، أمضيت الليل في استرجاع ذكرياتي مع أمي ذرفت الدّمع بعد أن تذكرت الواقع بلّلت وسادتي بالدموع وسرحت في عالم خيال أرى فيه طيف أعزّ شخصين على قلبي، التقطت نفسا عميقا وحملت دفتر مذكراتي وكتبت داخله:

كأنني طفل فقد أبويه

كأنني طائر قصوا جناحيه

كأنني باب فتح على مصراعيه

كأنني جثة دون هوية

كأنني برئ لم تنصفه القضية

كأنني ناي نسي كيف يعزف

كأنني قلم نسي كيف يكتب

كأنني في عز الصيف أرجف

كأنني نسيت من أنا؟

كأنني جئت من العدم

كأنني لم أكن في هذا العالم

كأنني لوحة موناليزا منسية

كأنني اختفيت وصرت نكرة

كأنني ضللت طريق العودة

كأنني مجرد حلم عابر

كأنني زيف مشاعر

كأنني أحرقت أحلامي

كأنني نثرت أمنياتي

كأنني لست أنا

شعرت بالهدوء أخيرا وخرجت من حالة الحزن التي كنت غارقة فيها اصطدمت بالواقع أخيرا تاركة الماضي والتاريخ ورائي فهذا هو القرار الصحيح لابدّ من ترك الأحزان والبدء من جديد فكل نهاية هي بداية جديدة تنتظر منا قبولها.

خرجت اليوم مثل كلّ يوم لشراء مستلزمات البيت والتنزه قليلا، حياتي بدأت للتو في هذه القرية الصغيرة عساي أحظى ببعض السعادة هنا فهذه محاولة مني للنسيان، دهشت

حين رأيت سيف في محل لبيع الملابس فدخلت هناك ولاحظت أنّ دشداشة رمادية قد نالت إعجابه اقتحمت لحظات تفكيره وقلت له:

"هذه جميلة أظنّ أنها تليق بك مثل الأسود تماما"

نظر نحوي وقال: "أنتِ مجددا!

طلب من صاحب المحل أن يبيع له الدشداشة وبالفعل اقتناها وخرجت معه من المحل والصدفة أن سامر كان مارّا من هناك ولمحني معه اندفع نحوي في غضب وأمسكني من يدي بقوة وأبعدني عن سيف فاضت عيوني بالدمع، نطق سيف بصوته الخشن:

"أ تريد ندبة أخرى غير التي بيدك"

كان سامر هادئا وتجاهل كلامه وطلب مني أن أعود معه إلى المنزل وحذرني في الطريق من سيف وهددني بحبسي في المنزل لو التقيت به ثانية. هددني بالضرب أيضا، كنت غاضبة من حديث سامر وغاضبة من الحياة والقدر وفور دخولنا صرخ عليّ وحكى لخالتي ما حدث، صفعتني بقوة نزعت حجابي أمام سامر دون أن أنتبه وجثوت على الأرض لطمت خدي كان البيت هادئا لدرجة أنّ الصوت الوحيد الذي كان يتردد هو صدى صياحي وفي موقف نبيل من سامر حمل حجابي وضعه على رأسي وطلب مني أن آخذ قسطا من الراحة في غرفتي. سمعت كلامه فقد تعبت من البكاء، جلست أمام النافذة فدخل سامر عليّ و أحضر معه كوب حليب وبعض البسكويت وقال لي أنه خائف عليّ من سيف لأنه وحش وليس هادئا ولطيفا كما يبدو عليه

فهمت موقف سامر وشعرت أنه طيّب لأوّل مرة وجلست على سريري أطالع روايتي وكتبي إلى أن سرقني النوم.

الفصل 6 :

دقات قلب

في كل يوم يصبح الوجع الذي يسكن صدري أقوى، في كل دقيقة تمرّ من هذا العمر أجد النفس والقلب في ورطة والخرافة المؤلمة التي نسجوها عن السعادة تصبح أبعد وأنا طبيبة نفسي أبكي في الملاعب التي خسرت فيها التحدي واجهت الماضي التعيس لأصنع منه حكاية فأدركت أنّ الحاجز بيني وبين المستقبل يصبح أقوى، قلمي رفض البوح بما يكتمه من تعبير ودم قلبي جفّ ونار الشغف تلتهب في جوف الجسد الهزيل، شغف البقاء على قيد الحياة والذي لم يتبق منه إلا القليل، كتبت هذه الجمل في مذكراتي وبدأت في تنظيف المنزل، يبدو أنّ خالتي لم تحضرني إلا لتجعل مني خادمة، سمعت من سامر ابنها أنّ في القرية مكتبة صغيرة .. أكملت أعمالي مبكرا من أجل التجول في القرية قليلا وزيارة المكتبة ربما أجد ما يبعدني عن خالتي وإزعاجها.

فتحت باب الخزانة على مصراعيه واخترت عباءة زرقاء داكنة ارتديتها وأخذت بعض الكتب وخرجت من المنزل وأثناء سيري لمحته إنه سيف يمشي وفي يده الكمان ودفتر ولم أجد حجة للحديث معه غير المكتبة فأنا حقا لا أعرف أين أجدها، ناديته بأعلى صوت لديّ: "يا صاحب الكمان"

التفت نحوي وقال: "أنتِ مجددا؟"

"لا أريد إزعاجك ولكن أين المكتبة الصغيرة؟"

"أنا أيضا ذاهب إلى هناك، اتبعيني"

سرت خلفه أدوس على ظله وأراقب سيره، لم يكن بمقدوري سماع سوى صوت خطواته ومعها دقات قلبي المتلعثمة التي في صدري، مضت الثواني والدقائق ثمّ وصلنا إلى بيت صغير في بابه لوحة مكتوب عليها المكتبة يبدو المكان قديما جدا ورائحة الأتربة تفوح منه، دخلنا فإذ برجل عجوز يعمل هناك رحب بنا، جلس سيف قبلي أما أنا حشرت نفسي وجلست بجواره، لم يعلّق بل اكتفى بالنظر إليّ نظرة حادة وهو مقطب لحاجبيه، كانت المرة الأولى التي أتأمل فيها وجهه واكتشفت أنه وسيم، جلس وبدأ بالمطالعة ما زاده جمالا، حين تفطن لنظراتي نحوه أغلق كتابه وقال لي: "ماذا يحدث معك؟"

قلت له: "أحفظ تقاسيم وجهك"

قال: "ولماذا؟"

لم أجبه وفتحت كتابي، فهم أنني أتهرب من تحقيقاته، فتح كتابه هو الآخر والذي استنتجت من عنوانه أنه يتحدث عن القتلة المتسلسلين، شخص غريب عصبي بارد المشاعر وحيد يكره البشر وعازف للكمان في نفس الوقت مثقف يقرأ الكتب ويبدو أنه سيصبح مجرما عن قريب، بقينا في المكتبة قرابة الساعة عمّ بيننا الصمت، وقفت لأتجول بين الرفوف، المكان صغير لكنه جميل يبعث على الراحة، بينما أنا أقرأ عناوين الكتب دخلت امرأة تبدو ملامحها مثل سيف كأنها قريبته وتوجهت نحوه، أخذته في أحضانها تلاعب شعره وتقبله، ترى من تكون؟

سيف: "أمي توقفي"

نورة: عد إلى المنزل لن أعاتبك على ما تفعل فقط عد".

أضاف: "منذ صغري وأنا بنظركم الشيطان .. الغريب .. الشرير .. ولم يحاول أحدكم التقرب مني والآن أنتِ تتوقين لمعانقتي لا زلت يا أمي أذكر الفلقة وكلّ ما فعلته معي لم يحنو قلبك عليّ لحظة واحدة ولهذا أخذت قراري لن أعود هذا أفضل لنا جميعا سوف أبحث عن عمل وأعيل نفسي وأبقى في منزل الغابة وإن أردت رؤيتي سأزورك كل أسبوع".

سمعت الحوار الذي دار بينهما ولم أتدخل فيه بقيت السيدة قرابة النصف ساعة تترجاه ليعود ولكنه رفض دون مشاعر لم يأبه لدمع والدته وتركها تذهب في حزن وأسى، لم يعجبني ما حدث وأردت تغيير رأيه جلست وقلت:

"اسمع ما فعلته غير لائق هي والدتك وعليك أن تراضيها أ نسيت أنّ الله أوصى بالوالدين خيرا؟" ..

لم يجب فأضفت: "أنا لا أرى أنك شيطان وأتمنى أن تصحح ما فعلته كي لا تندم، عشت في بغداد حياة سعيدة رفقة أمي وأبي دلال وحب وعطف ولم أشعر بالحزن معهما ولو لمرة واحدة لكن مات والداي في نفس اليوم بسبب حريق اخترق منزلنا وكنت الناجية الوحيدة كم أتمنى لو متت معهم يومها وأنا الآن في ندم على كلّ لحظة لم أكن معهما فيها أتمنى أن يعود الزمن وأعيشه ثانية بثانية بينهما، فكر في الموضوع يا صاحب الكمان"

كما هو متوقع غرق في صمت عميق ودعته وعدت إلى منزل الخالة.

شعور غريب بالانتماء يكتسح جسدي كلما حدثت سيف لم أخشاه مرة واحدة رغم أنه يمثل السواد والظلام، إلى أين ستأخذنا أحداث هذه القصة؟ لماذا التقيت به؟

كتبت هذه الأسئلة داخل المذكرة وأويت إلى فراشي باكرا.

الفصل 7 :

أوضاع سيئة

تدهورت الأوضاع في العراق بعد الغزو العسكري بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، والشرطة عانت من ضعف كبير خاصة بعد زوال الثقة بين المواطنين ورجال الشرطة، دقّ ناقوس الخطر فالجرائم والعنف زادوا أصبحت البلاد في حاجة إلى إعادة هيكلة. وشرح كبير المحققين في أمريكا الأوضاع المتوترة في العراق، وأعلمهم أنها بحاجة إلى دعم وتعاون بين المحققين المحليين والأجانب لتعزيز الأمن والاستقرار في البلاد.

الفكرة أنه سيتم اختيار مجموعة محققين ليساعدوا في ذلك على شرط أن يكونوا متقنين للغة العربية غير متزوجين كي تسير الأمور والأعمال بشكل أفضل وأسرع دون معيقات، وقع الاختيار على خمس أشخاص من بينهم المحقق "جاك ماكنالي" والذي كانوا يلقبونه بهركيول بوارو – بطل روايات أجاثا كريستي ومحقق عصره و ذلك لأنّ ماكنالي مغرم بتلك الشخصية و بروايات الكاتبة ونظرا لذكائه في حل الجرائم والألغاز الصعبة ... استساغ جاك ماكنالي فكرة الذهاب إلى العراق خصوصا أنه وحيد في منزله ولا جدوى من بقائه في أمريكا، لقد ذهب في رحلة للبحث عن لغز جديد

بالنظر إلى تاريخ جاك ماكنالي سنجده مزهرا بالنجاح والفطنة والذكاء شخصية قوية ومثيرة للاهتمام، أمضى في عمله كمحقق جنائي عديد السنوات وأصاب في حلّ القضايا التي وقف أمامها، إلا قضية واحدة والتي خلفت داخله جرحا لم ولن يندمل، جرح يرافقه في الأحلام ويغرز في قلبه إبر الندم.

بعد أسبوع واحد انطلقت الطائرة متوجهة نحو العراق تحمل داخلها خمس أشخاص قدموا في محاولة لتحسين الأوضاع وبعد ساعات عدة هبطت في أمن وسلام في مطار بغداد وكان في استقبالهم رئيس مركز الشرطة هناك رحب بهم بحرارة وانطلق جميعهم نحو مكتبه ليفهموا طبيعة عملهم، لقد تمّ تقسيمهم على عدة مناطق وكان مصير جاك ماكنالي هو العمل في قرية صغيرة.

انطلق القطار المتوجه إلى القرية واستغرق السفر تسع ساعات أمضاها جاك في قراءة كتب التحليل النفسي تارة والنوم تارة أخرى، لقد كان شارد الذّهن في أغلب الأحيان، جلست أمامه امرأة مسنة لاحظت شروده فخاطبته متسائلة:

"ما الذي يسرقك من عالمنا يا ولدي؟"

يبدو أنّ اللغة العربية لدى جاك جيدة جدا فقد تحدث معها بطلاقة ورد قائلا:

"يعجبني الجوّ"

قالت: "أشعر أنّ داخلك صراع".

أضاف جاك: "لقد فقدت زوجتي وجنينها السنة الفارطة وما حدث معهما لم يمحى من ذاكرتي بل يلاحقني دائما ويسبب لي الأرق أثناء الليل"

ردّت: "رحمهما الله يا ولدي هذه حكمة الله في خلقه كلنا سنموت"

يبدو أنّ ماكنالي يعاني من الذكريات السيئة ويبدو أنّ هناك لغزا وراء موت زوجته لكنه لم يحكي للعجوز وأكمل رحلته وعلامات الحزن بادية على ملامحه.

وقف جاك ماكنالي أمام المنازل والأحياء التي سيقيم فيها، انبهر بالهدوء الذي يعمّ هذه القرية، لم يعرف وجهته أوقف أحد الشبان وسأله عن مركز الشرطة هنا دلّه عليه، واتّخذ ماكنالي سبيله نحو المكان.

استلم المحقق عمله ومنزله الذي سيبقى فيه وأمضى ليلته خارج المنزل يتجوّل في كلّ مكان هروبا من الأرق الذي يلاحقه كلما زار البدر السماء، كانت ليلة قمراء جمعت بين الجمال والحزن الذي يسكن قلب جاك ماكنالي، ترى ما الذي يخفيه هذا الرجل داخل صدره؟ و لماذا يأكل الحزن قلبه؟

في مكان آخر كانت قمر تفكر وتقول في نفسها: "مر أسبوعين منذ آخر مرة التقيت فيها سيف في المكتبة أشعر بالشوق لهذا الفتى وأتوق لرؤيته، أريد أن أعرف هل عاد إلى منزله أم أن موقفه هو نفسه، أما أنا أمضي اليوم في تعاسة مع خالتي وابنها لقد أصبحت خادمة لكليهما بعد أن كنت مدللة البيت، يزورنا الليل حاملا بيديه الأسى والذكريات التعيسة كأنه يشعر أن حضوره يفتح الجروح المغلقة، وما من أحد يشد أزري غير الله، أقلب صفحات حياتي وأرضى بقدري أملا في يوم سعيد.

دمعي بلل الوسادة وجسدي ملقى على الجدران، في كل يوم أقفز من شعور إلى شعور والنتيجة كانت دوما الانهزام كاتبة الألم أنا وراسمة المعاناة أسير فوق أرضية ملقى عليها شظايا الزجاج متناسية الخدوش والألم حقيقتي أنني مجرد نكرة وحيدة أعانق قلبي الذي بداخلي وأطمئنه أنّ ما يحدث مجرد دعابة.

"يبدو أنّ القمر غرس في قلب ماكنالي وقمر السكاكين يذكرهما بماضيهما ويجبرهما على التفكير"

الفصل 8:

غرفة مظلمة

مرضت نورة مرضا شديدا بسبب غياب سيف عن المنزل، لم تخرج من غرفتها وأعرضت عن تناول الطعام، قرّر سالم الذهاب إلى ولده مرة أخرى قبل أن يفقد زوجته. فور وصوله طرق الباب لم يفتح له أحد حاول فتحه ولم يستطع يبدو أنّ سيف قد خرج، عاد سالم أدراجه وهو يفكر في المشكلة التي وقع فيها ابنه الغريب من جهة وزوجته المريضة من جهة أخرى، أرهقه التفكير.

عاد سالم إلى منزله وتفاجئ بزوجته في المطبخ، ابتهجت نفسه وضحك وجهه، عرف منها أنّ سيف عاد.

انتابه إحساس قويّ بالذنب لأنه صفعه في آخر مرة ذهب إليه فيها وقال لنورة:

"عزيزتي كل ما حدث جعلني أعيد تذكر ماضينا مع سيف أظنّ أننا من جعلناه يصبح هكذا، أ تذكرين؟"

"كان الجميع يصفه بالشيطان ولم نفعل شيئا بل ولمنا الصغير على تصرفاته"

نورة: "الشعور بالندم هو ما يزعجني لقد أدركت هذا حين زرته في المكتبة لقد لامني ابن رحمي لأنني لم أهتم به كما يجب"

أضاف سالم: "علينا التكفير عن هذا الذنب"

في تلك الأثناء كان سيف يتجول في القرية وكان واضحا عليه علامات القلق كان يبحث عن شخص ما، ذلك الشخص الذي غيّر رأيه و دفع به لأن يعود إلى المنزل. وصل إلى سوق الخضروات لمح قمر هناك استقر بصره عليها كأنها هي من يبحث عنه. لم تنتبه له

الفتاة وراقب كلّ خطوة لها، كلّ تحرّك، كل ابتسامة وفي ذات اللحظة حاول إيقاف نفسه وكان مستغربا من تصرفاته تجاهها، انتهت قمر من شراء الخضراوات ولأنها رقيقة لم تستطع حمل السلة. راقبها سيف من بعيد ابتسم ثغره لتلك اللطافة على غير عادته الشريرة تقدم نحوها وحمل عنها الثقل، نظرت نحوه ببلاهة وقالت:

"يا للعجب عازف الكمان!"

لم يجبها وسار في طريقه ثم قال: "أين منزلك؟"

ردت: "اتبعني"

ساروا معا جنبا إلى جنب كل منهما ينظر إلى الآخر دون أن يلفت الانتباه والصمت كان سيد الموقف.

كان سامر ابن خالة قمر واقفا عند باب الدار بمجرد رؤيته لها مع سيف غضب غضبا شديدا، لقد أصبح الدّم الذي يسري في شرايينه أسرع وزاد وجهه احمرارا، مشى نحوهما بسرعة لكم سيف على وجهه إلى أن سقطت سلة الخضراوات وتدحرج ما فيها، تسمرت قمر في مكانها ونظرت إلى الاثنين بذعر كبير، حمل سامر حجرا أراد قتل سيف من خلاله وحين حاولت قمر إيقافه زمجر فيها بغضب وقال:

"لئن لم تبتعدي لأكسر رأسك بالحجر"

انزعج سيف من كلامه وانقضّ عليه وأسقط الحجر من يديه.

صرخت قمر: "توقفا"

لم يجب أيّ منهما واستمر الشجار أراد كلّ منهما القضاء على الآخر، تقدّمت قمر في خوف نحو سيف أرادت إبعاده عن سامر ولكنه دفعها بيديه سقطت أرضا، وهنا توقف

الشجار لأنّ سامر ذهب للاطمئنان على قمر التي سقطت أرضا، ذهب معها إلى المنزل تاركا سيف وخيبته لوحده، ابتعد عن المكان وقد تحوّل إلى مخلوق آخر، شخص لن يتردّد في قتل من يعترض طريقه، أنّب سيف نفسه وأدرك أنّ الاقتراب من البشر لن يفيده، وعد نفسه بقتل المشاعر إن قرّرت الاستفاقة من سباتها، عاد إلى المنزل مليئا بالجروح مرهقا نفسيا، لم يخرج من الغرفة، قلقت عليه نورة كثيرا، طرقت الباب أرادت فقط خروجه .. رؤيته .. الاطمئنان عليه .. وراء الباب الموصد حمل الفتى سكينا جرح بها نفسه أراد الشعور بالنشوة .. أراد الظلام وعودة الكيان إلى قوته. أما قمر نالت حصتها من التوبيخ عادت إلى غرفتها جريحة وأعمق جروحها كان سيف، شعرت بالأسى عليه وكل ما أرادته معرفة أحواله وتطييب خاطره، ألقت بجسدها على الأرض وأرادت أن تكتب في مذكراتها مرة ومرتين وثلاثة لكنها لم تستطع وصورة سيف لم تفارقها لحظة واحدة، سيطر قلبها عليها وقررت الخروج ارتدت عباءتها وتسللت نحو الباب الخارجي دون أن يراها أحد، أخذت تجري مسرعة لكنها تعثرت في حجر وسقطت وجرحت يدها، مدّ لها أحدهم يده قائلا:

"تشبثي بي يا آنسة".

رفعت رأسها لمحت رجلا يبدو في الأربعينيات عيناه زرقاوان أشقر وضخم يبدو أجنبيا، أمسكت بيديه ووقفت، مزّق الرجل قميصه ولفه على يدها وابتسم قائلا:

"أنا جاك ماكنالي محقق القرية دائما في الخدمة"

ردت عليه قائلة: "جاك ماكنالي اسم أجنبي صحيح؟"

أضاف: "نعم لقد قدمت من أمريكا إلى العراق"

أردفت قائلة: "تشرفنا سيدي شكرا لك"

ثم تركته وأكملت طريقها بحثا عن سيف عازف الكمان

دخلت الغابة أملا في أن تجده داخل منزله الصغير، كانت الغابة في هدوء كبير دبّ الخوف في عروقها لكنها أكملت المسير، وصلت إلى منزل سيف دقت الباب وما من مجيب، نظرت نحو السماء خافت لأنه وقت المغيب، طمأنت نفسها بقراءة بعض الآيات القرآنية، إلى أن خرجت من الغابة.

وجدت القرية عامرة بالنساء والأطفال والرجال قالت في نفسها " الحمد لله ".

عادت أدراجها نحو المنزل وجرت معها تحقيقات من سامر ووالدته بسبب خروجها دون إعلامهما بذلك.

لم يخرج سيف من غرفته، بين الفينة وقرينتها كان يضرب يده في الحائط ليتخلص من الغضب الذي في داخله، خاض صراعا مع نفسه كي لا يقترب من قمر ثانية

في صباح اليوم التالي طلبت قمر من خالتها الذهاب إلى المكتبة وسمحت لها مع شرط عدم لقاء سيف، وافقت الفتاة وخرجت من المنزل أثناء تجولها في السوق لمحت أرجوحة خشبية حركت فيها مشاعر الطفولة وأعادتها بالزمن إلى الوراء إلى أيام تأرجحت فيها مع والدتها في حديقة منزلهم الكبير، عادت إلى الواقع ثانية وقررت شراء الأرجوحة دخلت و اقتنتها بالفعل وغيرت الخطة لم تذهب الى المكتبة بل سارت نحو الغابة وأخذت معها الأطفال كي تسعدهم باللعب على الأرجوحة وفي أقرب شجرة وجدتها علقتها على غصنها، بدأ الصغار في اللعب وكانت أصوات ضحكات عالية سار خلف تلك الضوضاء سيف وجلس بعيدا يراقب قمر مع الأطفال والابتسامة تزيّن وجهه، بعد

مضي وقت طويل غادر الصغار وبقيت قمر لوحدها جلست على الأرجوحة لمحت سيف قادما نحوها وأخبرها أنه سيهز لها الأرجوحة، أمضى الاثنان وقتا ممتعا، ضحك سيف كما لم يضحك من قبل وخرجت قمر من الحالة الكئيبة التي كانت عليها وعاد كلّ منهما إلى منزله مرتاح البال مطمئن الخاطر.

الفصل 9 :

يبدو أنني أحبك

القاتل المتسلسل لا يختار ضحاياه عشوائيا، يصنعه المجتمع دائما هذا النوع من القتلة كان يعاني في صغره من الاحتقار.

ملاحظات كتبها ماكنالي في دفتره وهو يشرب القهوة بينما الهواء البارد يحرّك أوراق كتاب التحليلات النفسية الموضوع على الطاولة، نهض من مكانه وأغلق النافذة قائلا: "فصل الخريف على الأبواب"

ارتدى سترته السوداء وحمل كتابه ودفتره وخرج من المنزل لقد تأهب للذهاب إلى عمله في ساعات مبكرة وذلك بسبب معاناته مع الأرق وفي خطوات مبعثرة لا تعرف للاتزان طريقا سار المحقق نحو مكتبه يبدو أنّ وجوده في العراق قد راق له، لكنه وحيد الآن دون أصدقاء دون زوجة دون طفل. في تلك الأثناء الهادئة لمح شابا ضخما حاد النظرات والملامح يراقب أحد البيوت، طبيعة عمل ماكنالي لم تسمح له بتجاهل هذا الفتى المثير للريبة اقترب منه قائلا: "ماذا تفعل؟"

ردّ عليه الشاب: "و ما دخلك؟"

استفز هذا الردّ جاك فسأله عن اسمه، قال له: "سيف"

ثم غادر ذلك المريب المكان وترك جاك ماكنالي ليكمل مسيره نحو عمله

كان عمل المحقق في هذه القرية قليلا جدا نظرا للهدوء والأمن الموجودان فيها ما لم يعجبه لأنه كان معتادا على الحيوية والنشاط في أمريكا فمعظم الجرائم التي كانت تحدث

داخل القرية تافهة بالنسبة له مثل المشاجرات والسرقة فقد كانت هوايته حل ألغاز الجرائم وفك شيفرات القتلة، تمنى جاك ماكنالي أن يصادف قاتلا واحدا على الأقل هنا بينما هو منزعج من الركود والهدوء دخلت عليه فتاة جميلة في لباسها المحتشم تحمل سلة من الطعام وبعض الورود، كانت قمر التي قدمت إليه من أجل شكره على ما فعله معها عندما مزق قميصه ولف به يدها المجروحة، شعر جاك ماكنالي بالسعادة وشكرها على وجودها و كرمها معه، مكثت معه ساعة كاملة حدثها فيها عن الولايات المتحدة الأمريكية وطبيعة عمله الممتع هناك، عرفت منه أيضا أنه من يطبخ طعامه بنفسه، خرجت قمر من مكتبه وتركت السلة هناك، أرادت العودة إلى المنزل لكن خطاها تثاقلت لقد أرادت رؤية سيف ولو لحظة واحدة من أجل الاطمئنان عليه قررت الذهاب إلى المكتبة ربما تجده هناك ربما تبعد العذاب الذي صبه عليها القدر فلم يتسنى لها الحديث معه آخر مرة، دخلت للمكتبة جلست فوق أحد الكراسي الذي أمكنها من رؤية الباب ومراقبة من يدخل منه، في غضون دقائق قليلة دخل سيف حاملا في يده الكمان بمجرد أن لمح قمر جالسة خرج من المكتبة يأكله الغضب لم تفهم موقفه لماذا هزّ بها الأرجوحة وضحك بما أنه غاضب لهذه الدرجة؟ حملت نفسها مغادرة المكان وركضت نحوه طالبة منه التوقف وما من جدوى، استمرت في السير خلفه و الصراخ باسمه جن جنونه التفت نحوها ودفعها وقفت أمامه مسلوبة التفكير والشعور ونزل الدمع الدافئ على خديها، ولأول مرة يشعر سيف بشيء ما غير الغضب وشغفه للدم، لقد أحسّ بالسهام تخترق صدره كأنّ دمعها حرك فيه ما لم يحركه أحد، لم يرغب في التعامل بلطف معها

وصرخ في وجهها قائلا: "أنا وحش افهمي في داخلي وحش لن أستطيع الاقتراب منك وإن أردت".

لقد كانت كلماته موجعة بالنسبة لقمر ضربة خنجر استقرت في صدرها نفذ الاكسجين المحيط بها ولم تعد قادرة على التنفس استمرت في البكاء دون توقف.

اشتدّ على سيف الصراع بين شعوره وكيانه لكنه إنقاد نحو دقات قلبه المتسارعة، أقبل نحوها معتذرا منها، طلب منها الجلوس والتكلم في هدوء دون دموع وحزن.

قبلت الفتاة طلبه، جلس الاثنان فوق كرسي أمام مركز الشرطة حيث يعمل ماكنالي، حكى سيف لقمر عن كيانه الشرير أخبرها أنّ وجودها بقربه لن يسبب لها سوى الأذى أعلمها أنه كان يتربص ببيت خالتها هذا الصباح رغبة في قتل سامر، نظر لها بحدة وطلب منها أن تبتعد عنه

قالت له قمر: "أشعر بالإعياء كيف سأبتعد عنك وأتركك لنفسك ووحدتك وظلامك؟ أظنّ أني وقعت في حبك يا سيف".

استرسلت قائلة: "تشبه الدفتر الفارغ أتصفحك وأتمنى لو أستطيع رفع القلم لأكتب داخلك ولو كلمة واحدة، لكن يبدو أني أنسج أوهاما وأخطط لأحلام يبدو تحقيقها محالا، أنت ترفض أن يكون في صدرك نص، النص يا سيف يأتي محملا بالمشاعر الرائعة لكنك تعشق كونك فارغا، تخفي الأسرار الواضحة وتضمر في جوفك خوفا ليس مكتوبا، كيف أقرأ ما بين السطور المخفية؟، كيف أنير نفقا مظلما بشمعة واحدة وروح تكاد تنكسر وتشعر أنها محاطة بالسواد وكأنما تركض داخل غابة أغصان أشجارها تحاول خنقها وترابها يريد دفنها."

أيها الدفتر ربما لن ترضى أن أكتبك لكنني لن أتوقف عن محاولة قراءة الفراغ الذي بداخلك بيني وبين نفسي وأبحر نحوك أيها المجهول الذي أريد أن أستكشفه ...

إنها المرة الأولى التي يحاول فيها أحدهم التقرب مني هذه الفتاة تنبش داخلي تنهش روحي توقظ مشاعري تقتل كياني، جملها كانت أدق وصف لحالتي فأنا حقا دفتر فارغ لم أردّ عليها بكلمة وتركتها للحزن إنها تحبني لكنني لم أشعر بالحب اتجاه شيء أو شخص افهمي يا قمر أنا لست لك تركتها خلفي وذهبت بصعوبة فالألم يفتت أضلعي، دخلت المنزل وسرت نحو غرفتي وصوتها لم يفارق مسمعي استلقيت على السرير ظهر طيف قمر أمامي عيونها البريئة دموعها الدافئة ابتسامتها الهادئة فكرت في كلّ لحظة أمضيتها معها وكيف أثبتت هذه الفتاة مقولة الفيلسوف عن الشعور لقد أيقنت الآن أنّ الشعور حقا تيار متدفق لا يتوقف وإن غاب عن جوارحنا وصدورنا سيعود لا محالة مع شخص مناسب شخص طيب يريد بنا خيرا، لقد وجدت هذا الشخص لكنني أخاف عليها من نفسي أريد أن أنير لها ظلمتي، أدخلها قلبي، لكن في داخلي كيان شرير يعشق الدماء يعشق الشر، قوته حين يرى معاناة البشر لا أريد له أن يقتات على دموع قمر فهذه الفتاة تهمني سأقف ضدّ نفسي والجميع كي لا أرى دمعة منها فهي الشخص الوحيد الذي يريد مساعدتي الشخص الوحيد الذي اقترب مني دون خوف، هذه هي الحقيقة حتى سيف البارد قد تغير موقفه إنني الآن أمقت الوحدة.

مازال طيف قمر أمامي لكن سرعان ما تلاشى فهو مجرد سراب زارني للحظات قليلة والآن غادر غرفتي غادر قلبي وتركني في وحدة وشوق، هل هذا هو الحب؟ فإن كان هو فما أجمله من شعور

الفصل 10:

ساعدني

موجودة هنا وهناك

هذا القلب يهواك

أنا حيث يوجد هواك

ليتني أملك حقّ رؤياك

ليتني بقربك كي تحكي عيناك

عنك وتلامسني يداك

بمنتصف الليل أذكر حكاياك

وبالنهار أمقت كلّ من آذاك

ليتني لك فأنا بعيدة عن سواك

حين تمرض تكون الروح فداك

في ساحة الحب أرجو لقياك

تعيش بجوفي فكيف أنساك؟

أجبني هل تدفن ميتا أتاك؟

هل تخفي جريمة سببها عيناك؟

فيا أسفاه على قلب تمنى أن يراك ...

بعد أن قرأ سامر بعضا من صفحات دفتري فهم أنني أحب سيف ردّد على مسامع خالتي هذه القصيدة ظنّا منه أنني لا أسمعه وقال لها:

"الحل الوحيد يا أمي هو أن أتزوج بقمر"

لم تعد قدماي قادرتان على حملي بعد أن سمعت هذه الجملة التي قالها سامر لخالتي، أنا أتزوجه هو؟ ماذا عن مشاعري اتجاه سيف؟

لقد اقتات القدر على دقاتي وفي حفر التفكير ألقاني تظاهرت أني لم أسمع شيئا عن موضوع الزواج فكرت في حلول ولم أجد أردت الخروج وإخبار سيف بما حصل لكن حبستني خالتي داخل المنزل كي لا ألتقيه، لم يفتح موضوع الزواج أمامي وكل ما أعرفه أني سأرفض الأمر، حبست نفسي داخل الغرفة ولم أخرج منها، رفضت كل طلبات الخالة في النهاية لست خادمة لها ولابنها الأحمق، كنت أراقب السماء من نافذتي لمحت المحقق جاك ماكنالي يبدو أنه جاء ليعيد سلة الطعام، فكرت في طلب المساعدة منه إنه رجل لطيف، لكن كيف سأخبره بما يحدث معي؟، يا إلهي قلّت حيلتي ماذا عليّ أن أفعل؟

استلقيت على فراشي ورغم الراحة التي أنا فيها إلا أن خلايا جسدي وكلّ ذرّة فيه تصرخ من شدّة الألم، قلبي يعتصر وبصيلات عقلي تكاد تنفجر، الدمع من عيني ينهمر عندما اعتقدت أنّ الحب زار روحي فوجئت بموضوع سامر أنتظر أن يعرض عليّ الزواج، أنتظر سيف لينقذني من هذا المأزق، بينما أنا أفكر وأغرق في الخيال غرقا طرق الباب سمعت خالتي تنادي باسمي "قمر قمر"، فتحت الباب وسمحت لها بالدخول جلسنا فوق السرير وبدأت الحديث معي قالت:

"اسمعي نحن نسكن في قرية صغيرة ليست مثل مدينتك الكبيرة وتسكعك مع ذلك الشاب لن يجلب لنا إلا المشاكل، مكوثك في هذا المنزل وسامر فيه أيضا ليس حلا جيدا لذلك ستتزوجينه أنا لا أطلب رأيك بل أعلمك"

"لكن .. لكنني لا أريد هذا الزواج يا خالتي كيف تجبرينني عليه؟ أرجوك أوقفي هذا أرجوك".

لم تصغي لكلماتي وخرجت من الغرفة تاركة إيّاي في صدمة أين أنت يا سيف؟، كان الأمر كالصاعقة جثوت على ركبتي أبكي وأذم حظي فقدت الرغبة في الوجود وتمنيت الاختفاء وترك من حولي، مسحت دموعي ووقفت بخذلان أمام المرآة أطلب منها أن تكون شاهدة على انهزامي اليوم فهذه أول مرة تبكي روحي فيها، اهتديت بفضل الله إلى حل.

مرّ يوم ويومين وثلاثة لم تظهر قمر كانت كلّ جوارحي تفكر في تلك الفتاة صورتها وهي تبكي لم تفارق مقلتي للحظة واحدة، أريدها معي لأنها الشخص الوحيد الذي أراد مساعدتي حقا، هي وحدها من أرادتني دون خوف أو مهاب من كوني وحشا أو شيطانا كما قال عني أهل القرية، لكن أين أنت يا قمر أين اختفيت؟ جلست أفكر فجرا وقررت الذهاب إلى المسجد لعلني أهتدي لحل ما، آه يا قمر لو تعلمين .. أنني أيضا أريد الاقتراب منك لكنه ألم قلبي، ألم روحي، سجن كياني كم أريد أن أهرب من نفسي إليك يا قمري، سرت وكياني الذي يعذبني نحو المسجد لعلّ الله يعينني عليه.

بعد قضاء الصلاة جلست قليلا أصارع نفسي وأفكاري، ثم خرجت وجدت المحقق أمام الباب إنه الرجل الذي أراد معرفة سبب وقوفي أمام منزل قمر ذلك اليوم، ترى ماذا يريد مني؟

سرنا نحو مكتبه وحدث بيننا حديث حول قمر أخبرته عن غيابها ربما لديه حلّ أو علم بما حلّ بها، علمت منه أنها أرسلت له مع سامر سلة طعام أخرى لكن هذه المرة دست داخل رغيف خبز ورقة كتبت فيها ساعدني، زعزع كلامه صدري وحرك غضبي ماذا حل بك يا قمري؟، أخبرني أنّ اسمه جاك ماكنالي جلست وهو نفكر في الموضوع ولم نصل لحلّ ترى ماذا حدث معها؟، أخبرني المحقق أنه سيفعل ما بوسعه.

بعد مغادرتي لمكتب جاك ماكنالي التقيت بالوغد سامر، الذي جاء لدعوة ماكنالي لخطبته، من هذه الحمقاء التي قبلت به؟

ركضت نحو منزل قمر وجلست بعيدا عنه قليلا وبدأت في العزف على آلة الكمان لقد ازداد الألم وكأنّ الوحش يلتهمني، لكنني واصلت العزف أردت من قمر أن تطمئن

لوجودي أردتها أن تعرف أنني سأقف ضدّ نفسي وأحميها من ظلامي ومنهم أرجوك يا قمر تعالي إلى جانبي، اسمعي لعزف الكمان وعزف دقاتي فأجمل نغمة موسيقية هي تلك التي تسكن صدري، آه لو تعلمين يا قمر؟ أنني لم أشعر بالأمان مع بشري واحد حتى أمي لكنك مختلفة.

سمعت أصوات النداء في جوفي إنه الحبّ يناديني، سمعت أذني عزفا ليس بغريب عنها إنه كمان سيف، وضعت حجابي ركضت نحو النافذة فتحتها على مصراعيها، أريد أن أنزل لك يا عازفي لكن لا أستطيع، لمحت سامر من بعيد قادم نحو المنزل وبمجرد رؤيته لسيف طرده حدثت بينهما معركة شرسة كان الضعيف فيها هو ابن خالتي الوغد كنت سعيدة، عازف الكمان يفعل ما أردت فعله به دائما، خرجت خالتي من المنزل وأرادت إنهاء الشجار، لم يصغي أحد لها راحت تصرخ طالبة النجدة وهي تلطم خديها أما أنا فلم أقاوم مشاعري وخرجت مسرعة في اللحظة التي كاد سامر أن يغدر سيف قلبي فيها ويطعنه بالخنجر لقد وقفت كالجدار بينهما في تلك الأثناء وصل جاك ماكنالي وأخذ سامر وسيف، أما أنا أردت استغلال الفرصة والهرب دون أن تنتبه خالتي لي لقد ركضت مسرعة نحو الغابة نحو المنزل الذي يقطن فيه سيف، جلست على الأرض باكية أنتظر عودته من مركز الشرطة أعلم أنّ ما فعلته أكبر خطأ ولكنني لا أريد الإقدام على الزواج من شخص لا أحبه هو شخص أكرهه، لا أدري هل لاحظت خالتي غيابي أم لا لكنني لن أعود أريد البقاء بجانب الشخص الذي أحبه والله لو كلفني هذا حياتي، أظنّ أنه يأتي لهذا المنزل دوما في المساء سوف أنتظره إلى أن يعود فأنا على يقين أنه لن يسمح بعذابي وزواجي من شخص أمقته وأكره الوجود معه.

مرت الساعات وأنا على نفس الحال جالسة على حجر إلى أن لمحت سيف قادما نحوي لقد خرج من بين الشجيرات، دون أن أشعر اندفعت نحوه والدمع على خدي سيل وقفت أمامه قلت له:

"سامر يريد الزواج مني أرجوك ساعدني لا أريد العودة إلى ذلك المنزل"،

ردّ عليّ: "أخبريني فقط ماذا أفعل يا قمر؟ أخبريني هربت إليّ ماذا سيقول أهل القرية عنك؟، هذا ليس حلا افهمي"،

أضفت: "هل أعود إلى هناك كي أزف عروسا لذلك الغبيّ هل أعود؟"

قال: "هل أرسلك إلى الجحيم بنفسي؟"

سلب عقلي مني لوهلة ودون تفكير قلت له: "تزوجني"

اجتاحتني الدهشة من هذا الطلب الغريب أنا أتزوجها هي؟ لكنني لست مستعدا لهذا الزفاف، لمحت الدموع تتناثر من عينيها لم أستطع رؤيتها هكذا لا أستطيع إظهار حبي لها أخشى أن أفقد عقلي وأجرحها أنا لست الشخص المناسب لها أشهر بالهلع كلما فكرت أنّ كياني قد يؤذيها ماذا أفعل يا قمر؟ أنا رجل ولا أستطيع رؤيتك هكذا لكنني في نفس الوقت رجل عربيّ وأخاف على سمعتك إن عرف أهل القرية بموضوع هروبك أضمر كلّ هذا الكلام في جوفي، لا أريد أن تعرفي حقيقة تناقضي كم أهوى ضمك إلى صدري كم أريد أن أناديك يا قمري، لكنني أخشى العواقب أخشى عليك منها.

أزحت كل الأفكار المشوشة التي كانت تجول في بالي، قلت لها: "سوف نجد حلا أعدك بهذا امسحي دمعك عودي إلى منزل خالتك واعلمي أيتها الجميلة أنّ الهروب من المصاعب جبن وأنا متأكد أنك شجاعة، عودي واجهي المشكلة ببسالة أما أنا أعدك أنّ زواجك منه لن يتم.

أرادت الحديث لكنني منعتها ومشيت من ورائها إلى أن وصلت إلى منزل ذلك الحقير، لا أعلم ماذا حدث معها عدت في عجالة إلى منزل عائلتي طرقت الباب بقوّة فتح أبي مستغربا دخلت وجدت أمي في المطبخ تعد الدولمة أخذتها من يديها وطلبت من أبي أن يتبعنا، جلست معهما في غرفة المعيشة وفي نظرات استغراب وحيرة قلت لهما:

"قررت الزواج".

ارتسمت على والدتي ملامح السعادة كما هو الحال بالنسبة لأيّ أم أما أبي شعرت بتوتره، لكنه لم يظهر لي شيئا من ذلك نطق كلاهما في نفس اللحظة: "من الفتاة؟"

قلت: "ابنة خالة سامر يا أمي فتاة يتيمة بقيت وحيدة دون أهل أو قريب جاءت من بغداد إلى هنا لتتكفل خالتها برعايتها".

استرسلت أمي قائلة: "هل سيقبل سامر وأمه بزواجك منها؟ هل نسيت الندبة التي في يديه؟ التي تذكره بوحشيتك اتجاهه ذلك اليوم، تريث قليلا يا بني لا نريد المشاكل".

أضاف أبي: "أؤيد رأي أمك بالتأكيد هم سيرفضون هذا الزفاف خوفا على الفتاة منك خصوصا أنّ أهل القرية يتحدثون عنك دوما بسوء".

قلت في غضب: "سأتزوجها يعني سأتزوجها ولن أغير رأيي أبدا".

تركتهم يفكرون وعدت إلى غرفتي أفكر في الموضوع لا أريد لأحد أن يجبر قمر على أمر لا تريده، لا أريد لها الحزن سامر ليس شخصا جيدا، صحيح أنّ حياتها معي لن تكون أفضل، لكن ليست أسوء من حياتها مع ذلك الغبيّ سامر، فهي تبدو حزينة في ذلك المنزل سأنقذها منه بشتى الطرق.

الفصل 11:

الأمر بيدي

كان حبك أقسى قراراتي

فما فائدة اعترافاتي؟

ما الجدوى من كل أعذاري؟

أرجوك أخبرني قبل أن أعلن انهياري

كيف أحد من عشقك وإصراري؟

كيف أنزع قلبي الذي أشعل نيراني؟

كيف أهذب شعري وأوزاني وقافيتي؟

كيف يصمت القلم ولا يكتب ألمي؟

مررت من أمامك لمحت رمشك فجذبني

إنّ في صوتك ما يهدد اطمئنان خاطري

في خطواتك ما يأسر خافقي

ضاق بي المكان وصرخ جرحي

كتمت حزنا كي لا ترى انكساري

كيف أجمع فتات نفسي وكبريائي؟

أرتبك أمام ذكائك وأكشف كل أوراقي

أصمت ولكن لك تنفك عقدة لساني

كيف أطلب من الفتى أن يتزوجني؟ لقد سكبت كلّ كؤوس كبريائي، لكنه الحل الوحيد لهذا المأزق، لم أفهم موقفه تركني وذهب، عدت البارحة إلى المنزل واستقبلني خطيبي المستقبلي بالتوبيخ، ماذا يظن نفسه؟ يحشر أنفه في كل أموري، كلما وضعت الرأس لأنام زارتني همومي وزارتني تلك الكلمة التي قالها سيف لقد قال يا جميلة، كلمة واحدة كانت كفيلة لتنتشلني من حفر الألم وتضعني في عرش السعادة أرجوك يا سيف تعال وخذني قبل أن أنهار.

وافق والداي على طلب الزواج استيقظت هذا الصباح في وقت مبكر فكرت في الذهاب إلى مكتب المحقق جاك ماكنالي وأستشيره في موضوع الخطبة والزفاف هذا لأنه رجل ذكيّ عندما عرفت أمي أنه وحيد في منزله أرسلت معي بعض الأطباق الشهية مثل الكبسة، المحشي والمشاوي. ذهبت إليه وأنا في حيرة من أمري مخلوق قصير القامة وذو عيون زرقاء دخل حياتي غيرني من شرير إلى طيب يحمل الطعام إلى محقق وحيد.

دار بيني وبينه حديث طويل فهمت منه أنّ قمر بالغة وتعتبر المتحدث الأول عن نفسها فلا يمكن إرغامها على الزواج من سامر ويجب أن نأخذ كبير القرية معنا كي يكون موقفنا أمامهم أفضل، لقد أخبرني أنها فتاة لطيفة وطلب مني أن أتقدم لخطبتها فهذا الحل الوحيد لمشكلتها، فور انتهاء الحديث عن موضوع الفتاة لمحت الكتب التي على طاولته روايات لأجاثا كريستي وكتاب تحليل نفسي حول القتلة المتسلسلين، زاد إعجابي بهذا الرجل وأخبرته أنني معجب بهذه الكاتبة ومعجب أيضا بالشخصية الغريبة للقاتل المتسلسل، أخبرني بعد أن أطلق ضحكة كلها ثقة:

"في أمريكا كانوا يطلقون عليّ إسم بوارو".

رجل مثله يشبه هولمز واسمه بوارو أمر عجيب حقا، قررنا في النهاية أن يذهب معي يوم الخطبة.

مر أسبوعين منذ آخر لقاء بيني وبين جاك ماكنالي إنه صباح يوم الخميس هبت الرياح وتساقطت الأمطار وألم قلبي زاد لكن لا شيء سيمنعني من الذهاب لمنزل قمر وخطبتها من خالتها، جاء المحقق إلى منزلي باكرا حاملا في يديه بدلة رمادية وطلب مني أن

أرتديها فهي هدية منه، كانت خطتي هي لبس الدشداشة ولكن أخذت هديته في صمت وارتديتها.

كانت نورة سعيدة جدا تكاد تطير من الفرح فلم تكن تفكر في أنّ ابنها سيف المتغطرس النرجسي المظلم قد يفكر في الزواج، أخذت الكثير من الفساتين والمجوهرات كي تقدمها كهدايا لكنتها المستقبلية، ارتدت عباءة زرقاء رغم أنها لا تحب هذا النوع من الألوان لكن سعادتها الفائقة جعلتها تنسى ما تحب وما لا تحب، أما والده فقد ذرف الدموع هو الآخر لم يتوقع أن يشهد زفاف ولده وكان هذا حلما مستحيلا بالنسبة له، لكن القدر عكس كل مجريات القصة وأصبح سيف الغريب مهتما بأمر أحدهم لأول مرة.

ذهبت العائلة ومعهم جاك ماكنالي إلى منزل العروس لطلب يدها، طرقوا الباب فتحته الخالة في دهشة وعصبية، كانت تريد طردهم لكنها سكتت بسبب وجود المحقق معهم، سمحت لهم بالدخول ونادت على سامر لتخبره، توسعت عيونه ومالت للون الأحمر إنها علامات الغضب.

في تلك الأثناء كانت قمر في غرفتها تسرح شعرها الذهبي الأملس الطويل دخلت عليها خالتها وأخبرتها بموضوع سيف وعائلته وأنهم هنا من أجل خطبتها، رغم أنها لم تكن سعيدة بهذا الزواج إلا أنها أرغمت على إخبارها فالقرار الأول والأخير بيدها هي، ابتسمت قمر في لطف و قالت: "الحمد لله".

زينت عينيها بالكحل وارتدت ثوبا جميلا وضعت حجابا على رأسها ونزلت من غرفتها باستحياء، دخلت المطبخ آخذة سينية القهوة وبمجرد دخولها لغرفة المعيشة ابتهجت نورة أعجبت بجمال الفتاة التي أتت لخطبتها. بعد أن ارتشف الجميع فناجين قهوتهم، أخذ ماكنالي زمام المبادرة وشرح لسامر ووالدته الوضع، أخبرهم أنه يعلم أنّ كليهما لم

يرغبا بوجودهم ولكن ليس باستطاعتهما منع قمر من هذا الزفاف لأنّ لا وصاية لهما عليها وهي بالغة قانونيا، هنا قال سالم:

"سيدتي لقد جئنا لطلب يد كريمتكم لابننا"،

لم يكن بمقدور أحد الرفض فحتى كبير القرية كان موجودا وأيد رأي ماكنالي وطلب من الخالة أن تختار القرار الصحيح، وافقت الخالة وسامر وكذلك قمر وسيف، كان الجميع يشعر بالسعادة ما عدا العريس الذي كان يتآكل من داخله يشعر بالعذاب لأنّ كيانه لا يرغب بهذا الزفاف، يرغب بالظلام ويريد طرد السعادة من حياة سيف. تجاهل الفتى آلامه وأخذ من والدته مجوهرات العائلة وألبسها لقمر دون أن يتكلم، أما هي فكانت تشعر بالفراشات تحلق داخلها واستمدت من عيون الفتى الذي تحبه الشجاعة، لقد كانت كالزهور حقا.

أكثر الحاضرين بهجة هي نورة، أما جاك ماكنالي فقد استأذنهم من أجل العودة إلى عمله، لكنّ الحقيقة أنه تذكر زوجته حبيبته التي ماتت في ظروف غامضة، قبّلت قمر يد نورة ويد سالم، نهضت نورة من مكانها وأهدتها الفساتين والشوكولا والعطور والمجوهرات، ثم عادوا جميعا إلى المنزل فمن عادات العائلة صنع أطباق لذيذة من الطعام وتوزيعها على الجيران بعد الخطبة.

وصلت رسالة من أمريكا للمحقق ماكنالي أثارت غضبه وانزعاجه جلس على أريكة مكتبه يطالع الجريدة، يتذكر لحظات إيجاده لجثة زوجته، تذكر الثواني التي لمس فيها الجسد البارد الخالي من الحياة، يبدو أنّ هناك لغزا وراء هذه الوفاة، ما هو يا ترى؟

كان سامر في غرفته والشياطين تحوم فوق رأسه فشلت كل خططه التي وضعها وضاعت قمر من بين يديه، لقد بات مخذولا.

الفصل 12 :

مفاجئة مزعجة

مكنون الرسالة التي وصلت إلى المحقق أنّ هناك دفعة من الزوار الأمريكيين ستزور العراق ومن بينهم أحد الأطباء المشهورين لم يرحب ماكنالي بهذه الزيارة فهناك ماضي قديم وحسابات لم تنتهي جمعته بهذا الطبيب " الدكتور جاكوب " والمفاجئ أنه قادم لنفس القرية التي يعمل فيها المحقق، مفاجئة غير سارة جعلت الحقد يدب في شرايين جاك ماكنالي عبس وجهه وبانت عليه ملامح الاستياء.

وصل الطبيب جاكوب إلى القرية الصغيرة كان طويلا وملامحه تميل إلى الملامح العربية شعر أسود وعيون سوداء جاء ومعه أمر بفتح عيادة في القرية، ذهب إلى مكتب المحقق جاك ماكنالي وكان اللقاء عنيفا، بدت عليهما العداوة والبغضاء، جلس الطبيب إلى جانبه وألقى عليه التحية لم يبادر ماكنالي بالردّ عليه بل التزم الصمت طويلا ثم نهض من مكانه قائلا:

"أكاد أوقن أنك هنا فقط من أجلي".

جاكوب: "حساباتنا لا زالت مفتوحة وهروبك من أمريكا ليس بحل يا بوارو لكن لا تعتقد أنك محور الكون وأنّ كل الأمور تدور حولك أنت فقط أنا هنا من أجل العمل وإن حاولت فتح المواضيع القديمة سترى مني ما لا يحمد عقباه، أيها المحقق الذكيّ ابحث عن المجرمين في هدوء واتركني كي أعمل أنا أيضا في هدوء.

شد ماكنالي على قبضة يديه بغضب ونظر للطبيب وهو مقطب لحاجبيه والنيران تحرق جسده، طرده من مكتبه وطلب منه أن لا يخرج أمامه. خرج المحقق الطيب عن طوره والسؤال هو: ما الحساب الذي يجب تصفيته؟

على خلاف ماكنالي لم يكن جاكوب منبهرا بهذه القرية وشعر أنها مجرد مكان يحبس حريته التي كان يعيشها في أمريكا التقى بكبير القرية وشرح له أمر العيادة الطبية، وافق لأنّ الأوضاع بالعراق وبالقرية خاصة ليست بالجيدة وفكرة العيادة مفيدة جدا لسكانها، باشر جاكوب في التجول بين البيوت والأراضي الفارغة واختار أحد المنازل المهجورة ليقيم أساس عيادته فيه، لم يبقى سوى خطوة إبرام عقد الشراء والبدء في إعادة البناء.

التقى سيف وقمر في المكتبة دار بينهما صراع نظرات، كان حديث العيون مسيطرا على الموقف إلى أن بادرت قمر وباحت له بكلمات حبستها كثيرا في خافقها تليها دمعة مخنوقة بين الرموش وانبثقت الحروف:

"حين التقيتك أول مرة لم أكن أخطط أنك ستكون الحب الثابت بداخلي .. حين بدأ قلبي يرجف في كل مرة تلاقت عيناي بعينيك اكتشفت أنك شخص مميز لم يسبق لأحد قبله أن وصل لأعمق النقاط بقلبي بل إلى روحي وعانقها، أيقنت بالفعل أنني أحبك تمنيت أن تميل فروع قلبك نحوي قليلا جعلت رياح حيائي تهبّ نحوك لعلّ احمرار وجنتي قادر على جعلك تحب. لأول مرة أغير أحلام طفولتي، دائما ما ألقيت شباكي بالبحر بغية اصطياد سمكة، لكنني الآن وبافتخار أرمي الشبكة في بحار الحب لعلي ألتقط قلبا ينبض قلبا نقيا منيرا كنور البدر في ليالي الشتاء، أنت الصدفة المفاجئة الزلزال الغير متوقع أنت وقع طبل وعود طرب، عندما قررت الاعتراف لم أرتدي أفضل ما لديّ بل قابلتك بصورتي الحقيقية وما أسعد قلبي من سجين سجن بحبك، أنت تشبه تلك اللحظة حين يلفظ القاضي بالبراءة لمتهم، ما أريد معرفته هل قلبك سجين قلبي أم لا؟"

رمقها سيف بنظرة حيرة وتعجب وإعجاب بكلّ كلام إنساب من لسانها، لم يظهر لها شيئا من السعادة التي تحفر داخله ولا من الألم الذي يفتت أضلعه، لم يجب حتى على سؤالها اكتفى بابتسامة تخفي كلّ ما يسبح ويسري في خافقه، في لحظة كهذه شعرت قمر بالخذلان ونظرت له نظرة حيرة تليها نظرة أسى وغادرته.

ألقى بجسده المنهك على الكرسي ولأول مرة يشعر بالفضول حول طبيعة الكيان الذي يسكنه " أهو جن أم مجرد خيال أشعر به أنا فقط"، لم يرد لهذا المجهول أن يؤذي الفتاة

التي مال قلبه لها وانقادت جوارحه نحوها لكنه لا يعلم من أين يبدأ ولا يريد لشخص أن يعرف بموضوع هذا الكيان، كانت قمر تائهة وسط الأفكار تلعن الدقيقة التي جعلتها تهرب من سامر إلى سيف من مستبد إلى نرجسي لا يقوى على نطق كلمة، كل ما تريد معرفته لماذا وافق سيف على الزواج رغم أنه لا يحبها؟

رغم انكسارها إلا أنها بقيت على موقفها تريد البقاء بقرب خطيبها والزواج منه تريد تغيير طباعه وإظهار العالم على حقيقته في عينيه، كانت تخطط لمساعدته وإسعاده وإزالة الهموم التي تحبس أنفاسه، ما أجمل هذا الحب الذي يجعل من المرء ينسى نفسه رغبة في إسعاد من يحب وما أجمل المشاعر التي تغير شخصا شريرا إلى رجل شهم يريد مساعدة فتاة للهروب من زوج لا تحبه ..

بكت السماء تلك الليلة كان المطر مواساة لقلبي قمر وماكنالي الحزينين كلاهما يعيش حزنا وغموضا، الأول يريد فك لغز قتل زوجته والثانية تريد معرفة حقيقة مشاعر الشخص الذي تحبه، خرج ماكنالي من منزله سار تحت المطر أما قمر فقد كتبت في دفترها بعض أحرف تشد أزرها

تساءلت ولمرات كثيرة كلما رأيت السماء تبكي
اعتبرت دوما أنّ المطر دمع وأنّ حزن السماء حزني
واسيت نفسي بالضحك كلما رأيت الماء على وجهي
فكرت كثيرا واستنتجت أنّ المطر بداية جديدة لي
ماهي فحوى قصتي؟ أراني أخسر كل يوم أحبتي
وكأنّ الساحرة ألقت عليّ لعنة يوم ولادتي

كانت تلك اللعنة تحمل دوما جثمان جثتي

إلى متى سأقتل كم من روح تسكن جسدي؟

فكل هذه الأحداث تحطم روحي وتكسرني

فقدت أمي وأبي

ولأن الله من كتبك رضيت بك يا قدري ...

الفصل 13 :

أضغاث أحلام

وضعت الكتب أمامي وكل الروايات

فوجدت أنّ ما دونك يرمى في الحاويات

لم يعجبني حب قيس فأنت من أحلى الحكايات

ولم أعجب بليلى فأنا أعشقك أكثر من كل الفتيات

اعترفت لك آه ما أجملها من مشاعر لهفة البدايات

علقنا أرجوحة على القمر وبقيت من الذكريات

حين لمست قلبك بيدي شعرت أنّ داخله فراشات

فحلقت بك بعيدا وأسرتك عن كل الفاتنات

أغار من نسمات الهواء التي تلامسك وأيضا الهمسات

وصرنا طفلين يحبان الشجار وبينهما مشاحنات

ما ذنبي ومشاعري ما دخلي بطيش القرارات؟

ما ذنبي حين أحببتك وبنيت الأمنيات؟

ما ذنبي حين عذبني بعد المسافات؟

سأحتضن شعوري كمن فقدت لعبة الاميرات

وأغلق أبواب قلبي وأنحني للحب كالصغيرات

وأكتب قصتي في رواية فتنحني لي كل العاشقات ...

تعاطف قلب خالتي معي قليلا في الأيام الأخيرة وكانت تخرج برفقتي لشراء أغراض العرس واقتناء الفساتين والمجوهرات، لم يبقى سوى يومان على موعد الزفاف لم يزرني سيف إلا لمرات قليلة وقررت عائلته أن تكون حفلة صغيرة للأقارب فقط، سرقت مني أحلام طفولتي بلمح البصر تمنيت أن يكون عرسي مثل الأميرات تمنيت أن يحضره الكثير من الناس وتمنيت أن يأخذني موكب كبير، طردت هذه الأفكار من رأسي البساطة أيضا جميلة.

لم يغادر تفكيري سيف كنت محتارة فهذا الشاب يثير الريبة في النفوس ولكن الزفاف هو الحل الوحيد لمشكلة سامر، لم أفهمه أبدا تارة يظهر لي أنه مهتم بي وتارة أخرى أشعر أنّ قرار الزفاف مجرد شفقة منه لا غير أرغم على ذلك لأنني طلبت منه أنا.

خرجت وخالتي إلى السوق لإحضار الفستان من معمل الخياطة فور دخولنا تهامست النساء عني وسألتني إحداهن:

"كيف وافقت على الزواج من شيطان؟"

أخذت فستاني وتجاهلتهن، على كلّ حال سيف شاب وسيم ومؤدب أنا على يقين بأنّ داخله طيبة لا يظهرها، لن أتراجع وعدت نفسي في هذا اليوم على حب سيف وإن وقف في وجهي الجميع.

أعلم أنه أيضا تعرض للكثير من هذا الكلام الجارح، لكنه أكمل حياته دون أن يأبه لأحد آه يا له من شخص مسكين دعونا عائلة سيف للعشاء هذه الليلة، حضرت الأطباق بيدي بكل حبّ أردت من سامر أن يتصالح مع سيف، ذهبت نحو غرفته طرقت الباب بهدوء، طلب مني الدخول وجدته جالسا على الأرض جلست بجانبه وقلت له:

"أنا لم أرفض الزواج منك إلا لسبب واحد هو أنّ قلبي قد تعلق بشخص آخر، الحب ليس بيدي وهو شعور يقذف بداخلنا دون ندري او نشعر، لقد وقعت في حبه يا سامر منذ أول نظرة، سأطلب منك طلبا صغيرا لأول مرة أرجوك تصالح معه بعد العشاء الليلة".

رمقني سامر بنظرة كلها تأنيب، شعرت بالقشعريرة لكن سرعان ما ابتسم وابتهجت نفسة وقال لي:

"صحيح يا قمر أنني لم أرد وجودك في هذا المنزل وعاملتك بأسوء الطرق، لكن تبقين ابنة خالتي أعدك أنني لن أشاجره ثانية إلا في حال واحد إذا أحزنك يا عزيزتي".

خرجت من غرفته وأنا أشعر براحة شديدة وسعادة فائقة، أخيرا ستسير كل الأمور على ما يرام، ارتديت أجمل ثيابي ومجوهراتي حضرت الطاولة وجلست أنتظر حضورهم وفي غضون دقائق سمعت طرقا على الباب، يبدو أنهم وصلوا، ذهبت مسرعة نحو الباب وفتحته بحماس، وجدت أمي نورة وأبي سالم ومعهم سيف يحمل في يده باقة من الورود، لاحظت حرجه واحمرار وجنيته، كم هو لطيف حين يشعر بالخجل أشعر أنه وردة جورية أتمنى قطفها كي لا تضيع مني، دخلوا رحبت بهم خالتي وسامر أيضا رغم أنني شعرت بعدم ارتياحه و لكن كان بشوش الوجه ولم ينطق بحرف واحد يمسهم، كم أتمنى دوام هذه الحال الحمد لله، بعد العشاء أبدى الجميع إعجابهم بأطباقي أما سيف اكتفى بالابتسام ذهبت إلى المطبخ لإحضار الحلوى وحين عدت وجدت أنّ سامر فتح مواضيعه القديمة مع سيف وأخبره أنه سامحه، ثم نظر نحوي قائلا:

"إنها أمانة بيديك حافظ عليها يا صديقي"،

في جوّ لطيف ضحكنا جميعا خرجنا أنا وسيف خارج المنزل تركناهم ليتبادلو أطراف الحديث، سرنا تحت ضوء القمر وبيننا مسافة قصيرة كم أتمنى تجاوز حاجز المسافات هذا وأصبح أقرب له كم أتمنى ذلك حدثت سيف عن ذكرياتي مع والدتي لكنه سار صامتا مستمعا لحديثي دون التدخل فيه بل اكتفى بهز رأسه والابتسام، عدنا إلى المنزل بعد مرور نصف ساعة وغادر هو وعائلته، بقيت مع خالتي وسامر تكاتفنا لتنظيف المنزل.

أقيم حفل الزفاف في ليلة دافئة غمرت السعادة قلب نورة حتى الخالة ذرفت الدموع تلك الليلة وطلبت المغفرة من قمر على معاملتها القاسية أما سامر لم يكن من الحاضرين.

اتخذ العروسين من بيت الغابة الصغير منزلا، رتبته قمر وغيرت أماكن الأثاث.

في أول يوم لهما كعروسين استيقظت قمر باكرا ارتدت فستانا جميلا سرحت شعرها حضرت الفطور، فور استيقاظ سيف انبهر بجمالها وجمال شعرها، أخفى انبهاره وتعامل معها ببرود كبير ما أثار غضبها.

اكتمل بناء عيادة الدكتور جاكوب كان أهل القرية في سعادة لأنّ العيادة كنز بالنسبة لهم، كان جاك ماكنالي المستاء الوحيد من هذا الوضع، خرج للتنزه حاملا في يديه جريدة قديمة جلس قريبا من عيادة جاكوب وفتح الجريدة على خبر عنوانه: إيجاد جثة السيدة ماكنالي في ظروف غامضة انسابت الدموع من عيونه فور رؤيته للخبر، إنه يشعر بنفس الحزن في كل مرة يفتح فيها أوراق هذه الجريدة حاول تمزيقها ربما ينسى ما حصل ولكنه لم يستطع لأنّ حق زوجته وطفله ضاع من بين يديه، لغز حير أمريكا بأكملها.

قال في نفسه: "لقد أتيت عندي أيها الحقير أعدك لئن لم أثبت أنك القاتل لأقتلنّ نفسي."

يبدو أنّ في الأمر سرا ما.

مرّ يومين على زفافي ولم أنم كما يجب، عاملت قمر بفضاضة صبرت المسكينة على تعاملي وتصرفاتي ولم تظهر أيّ انزعاج، لكنني كنت أشعر بحزنها واختناق دقاتها كنت أشعر باستيائها ورغبتها في البقاء بقربي، تمضي أغلب أوقاتها في الطبخ والتنظيف كانت حريصة على راحتي ضاق صدري لهذا الوضع، أريد السيطرة على كياني ومعرفة ماهيته

كانت هذه الليلة جميلة، نامت قمر باكرا أما أنا نظرت إلى النافذة أعجبتني السماء التي رأيت فيها جمال القمر، كان يبدو مثل الكواكب وسط النجوم الصغيرة أدركت حينها أنّ لدي قمران الأول في السماء والثاني في قلبي ولكنني أخشى الإفصاح، قررت أن أغفو قليلا، ألقيت بجسدي على السرير وسافرت إلى عالم الأحلام، رأيت كابوسا أعاد لي مشاعرا غادرتني منذ زمن، تلك المشاعر التي تجتاحني كلما شممت رائحة الموت وشعرت به يقترب، كنت نائما لكنني أحسست بما أحسسته حتى في الواقع ولم يكن مجرد خيال عابر، لقد رأيت جثة فتاة بترت ساقها مكتوب أمامها بالدم رقم واحد وكان موضوعا فوق وجهها ورقة كتب فيها سافر الجسد إلى الموت مبتور الساق.

استيقظت من نومي على صوت قمر التي كانت ترحب بأمي طردت الحلم من رأسي فهو مجرد أضغاث أحلام ليس لها أيّ تأويل، جلست فوق مائدة الفطور أنا وأمي، كان واضحا على وجهها السعادة وهي تراقب قمر أثناء عملها، أعجبتها كلّ الأطباق ولم تعلق على أي شيء، جلست معها بعد الفطور، قالت لي بصوت خافت:

"ستكون من أشدّ النادمين لو ضيعت هذه الفتاة من بين يديك يا ولدي"،

اخترقت كلماتها صدري، لأول مرة أفكر في قمر من هذه الناحية ماذا لو غادرتني ماذا لو سئمت مني؟، يجب أن أبادلها الحب ولو كان هذا الأمر سبب آلامي، غادرت أمي

المنزل، طلبت من قمر أن تجلس بقربي لأنّ لدي ما أقوله لها، جلست وفي وجهها علامات الحيرة و الفضول.

قاطعت حيرتها وقلت: "اسمعي أعلم أنّ في قلبك حبا وفي جوفك حزنا كل هذا بسببي، أنا شخص مريض يسبح الجنون في داخله، يسكنني كيان شرير لا أعرف حتى ما طبيعته، لا أريد لك الأذى ولهذا وضعت بيننا مسافات"، لم ألمح الخوف على وجهها بل رأيت ابتسامة جميلة أثلجت صدري

التفتت لي وقالت: "وعدت نفسي بالبقاء معك ستحبني أنت والكيان الذي بداخلك."

في كل مرة تبهرني هذه الفتاة أكثر فأكثر لا تخاف مني وتريد البقاء بقربي أرجو أن أتمكن من تقديم البعض من ما قدمته لي وقررت حينها محاربة نفسي وخوض صراع مع الكيان الذي يتحكم فيني وفي كل تحركاتي، لا يجب أن أنسى أنه يسكنني ولذلك أنا من سيتحكم فيه وليس هو أنا البشري وليس هو أنا الحقيقة لكنه السراب الذي أشعر به أنا فقط يقال أنّ الخيال هو حقيقة تستحق وتنتظر البدء فيها ولأنّ حب قمر والاعتراف لها أصبح مجرد خيال بالنسبة لي يجب أن أبدأ فيه وأكتب النهاية أنا دون أن ألتفت لمشاعر تقطن في جوفي.

في أعماق الليل كان هناك شخص غريب يتسلل لأحد البيوت عمّ الهدوء والسكون ولم يصدر من المنزل أي ضوضاء بل كان الوضع مسالما، يبدو أنه لص يريد السرقة لم ينتبه له أحد ولم يسمع صوته شخص .

كان جاك ماكنالي مستيقظا في منزله كعادته وفزع من صوت طرقات متتالية على باب منزله تليها أصوات صراخ تناديه أيها المحقق، أيها المحقق توجه نحو الباب في ذعر وجد رجلا مغطى بالدماء يخبره أنّ زوجته مقتولة في المنزل، ذهب المحقق إلى منزل الرجل في ذعر وحماس أعاد له أيامه الممتعة في أمريكا، تحول المكان إلى مسرح جريمة ماتت المرأة في أحداث غامضة، كانت الجثة في حالة مزرية ساقها مبتورة وفوق وجهها ورقة مكتوب عليها: سافر الجسد إلى الموت مبتور الساق، وعلى الأرض مكتوب بالدماء رقم واحد. استنتج جاك ماكنالي أنه أمام قاتل متسلسل هذه المرأة أولى ضحاياه، لم يترك الجاني خلفه دليلا واحدا لا توجد علامات اقتحام ولا حتى سرقة كأن المرأة تعرف قاتلها جيدا وكان المتهم الأول هو زوجها كونه أول شخص وجدها ولأن القاتل لم يدخل البيت عنوة، لكن جاك ماكنالي لم يطرد من باله اسم جاكوب وظنّ أنه هو القاتل.

اهتزت القرية على خبر وفاة السيدة وأصبح الجميع في ذعر وأصابع الاتهام كلها توجهت نحو سيف لأنه الغريب الوحيد في هذه القرية، وصلت محققة جنائية عراقية لتساعد ماكنالي في التحقيق.

ماكنالي: "ما لم أفهمه كيف دخل المجرم للمنزل دون أن يقتحمه؟ وكيف لم يسمع أحد من الجيران صراخ الضحية؟"

المحققة سهى: "يبدو أنها تعرفه حقّ المعرفة سمحت له بالدخول دون أن تشعر بمهابة منه يبدو أنه محترف كتب الرسالة بأحرف مطبوعة كي لا نعرف خطته إنها طريقة ذكية تذكرني بأحد القتلة".

ماكنالي : "زودياك أليس كذلك؟"

سهى: "بالتأكيد لكن هذه الجثة وطريقة القتل لا تشبه أسلوبه وإلا كنت سأقول أنه شخص مجنون ومعجب بالقاتل الشهير قرر تقليده بتنفيذ نفس الجرائم"

ماكنالي: "إذا أنت أيضا ترجحين أنه قاتل متسلسل".

أطلقت سهى ضحكة خفيفة تدل على تأييدها لكل استنتاجاته، اتجه الاثنان نحو غرفة الاستجواب و كان زوج الضحية موجودا هناك وبدأ التحقيق.

ماكنالي: "قلت لي يا سيدي أنك كنت مسافرا وشاءت الصدفة أن تلقى زوجتك حتفها في نفس اليوم الذي عدت فيه".

أجابه السيد في غير مبالاة: "هذا صحيح"

ماكنالي: "قصة مقنعة لو لم تكن أنت أقرب الناس للمغدور بها".

المشتبه به: "ماذا تريد أن تقول؟"

ماكنالي: "كانت بينكما مشكلة دخلت الى المنزل وكانت تنتظرك ولهذا لم تصرخ عندما دخلت لأنها تعرفك، طعنتها بالسكين وغدرت بها وحولت المكان إلى مسرح جريمة لقاتل متسلسل كي لا نشك فيك، كان لديك الوقت الكافي لإخفاء آثار فعلتك وتريد تشويش انتباه الشرطة بهذه الطريقة".

امتقع وجهه وشد على قبضته بغضب واسترسل قائلا في إصرار: "تظن أنني القاتل وتترك الجاني الحقيقي يمرح ويلعب، أنا لديّ حجة غياب يا سيدي تثبت أنني لم أكن في المنزل في ذلك الوقت إنها تذكرة القطار التي تؤكد بأنني كنت على متنه وزوجتي كانت مقتولة قبل ذلك الوقت، شرح الجثة وستفهم أنني لست القاتل على أية حال".

نظر ماكنالي نحو سهى في ارتياب وقال الرجل محق وهو على دراية بأحداث التحقيق ولأكون واضحا حدس المحقق الذي لدي يخبرني أنّ هذا الرجل برئ من التهم التي وجهت نحوه فملامح المجرم تختلف عن ملامح الشخص البريء.

خرج الاثنان في انتظار نتائج التشريح ماتت المرأة على الساعة العاشرة وعاد الزوج الى المنزل بعد منتصف الليل هذا يعني أنّ القاتل شخص آخر يختبئ في مكان ما دون أن يلفت الانتباه ولهذا وجب التحقيق مع كل سكان القرية.

أمضى جاك ماكنالي يوما كاملا في التحقيق مع الجميع منهم قمر وسيف ظهرت على سيف علامات القلق ولكنه أنكر معرفته بأيّ شيء يخص هذه الجريمة، وفور خروج الشرطة عاد إلى ذاكرته ذلك الكابوس لقد رأى نفس الأحداث بنفس التفاصيل، بدأ الشك يتغلغل داخل قلبه هل استولى الكيان على جسده وفعل ما فعله بالمرأة المسكينة؟

انتهى التحقيق وقد أكدّ كلّ سكان القرية أنّ سيف هو الوحيد القادر على فعلها شخص مريب يحب السوداوية يطالع روايات بوليسية، لكنّ جاك ماكنالي لم يشك ولو للحظة واحدة بسيف بل كان طرفه موجها نحو جاكوب حدثت جريمة شنيعة كهذه بعد وصوله إلى القرية وقد كان متهما بقضية قتل في أمريكا إنها نفس القضية التي تشغل بال جاك ماكنالي، قضية قتل السيدة ماكنالي الحامل.

عاد إلى منزله وقد أعياه التعب سكب لنفسه كوب قهوة وجلس على الأريكة يحلل ملف القضية مرة أخرى، قرأ تقرير الطب الشرعي أكثر من مرة، الذي بتر الساق شخص محترف يبدو أنه اختار ضحيته عشوائيا، فتح ماكنالي دفتر ملاحظاته الذي كان يسجل فيه تصرفات القاتل المتسلسل ووجد أنّ جرائم القتل المتسلسل تبدو عشوائية في حين أنّ الجاني يستهدف الغرباء فضحاياه ليسوا عشوائيين وقد يجمع بين كل الضحايا شيء مشترك ولهذا قرر جاك ماكنالي التدقيق في القضية أكثر ليعرف تحركات المجرم ومن ضحيته القادمة.

تذكر أول مرة عرض فيها الزواج على السيدة ماكنالي وتذكر لحظات الاعتراف بينهما سرى طيفها بين مقلتيه وغرق المسكين في شوق عظيم.

الفصل 14:

قضية غريبة

استيقظت فجرا وجلست على طاولتي في يدي قلمي محاولا كتابة قصيدة غزل عن قمر قلت فيها:

لا تكبري أو امشطي الشيب بجانبي

لا أحب رؤيتك عجوزا ابقي طفلتي

حين تجهشين بالبكاء تسرقين قلبي

تأخذين تفكيري وتسلبين شعوري

وأرتطم في زحام حسنك وأفقد أعصابي

أريد أن أكتب في غزلك الكثير حتى أدفن أفكاري

فقدت سيل الحروف وأنا أبحث عن أعذاري

أسباب تسمح لي بالحديث لك لأريح عقلي

تفوح رائحة الورد منك يا زهرة حبي

في نهاية اليوم تجوبين في جوفي

وتزيلين بعضا من شقائي وعنائي

انزعي سواد روحي وأنيري سمائي

أنت الوجود ولا كون لك سوى بقربي

خذي خاتم حبي وارتديه ولا تبتعدي

ليتني لا أبقى وحيدا كي لا يقتلني ألمي

ليت الحياة لاقتني بك قبل أن أغرق في خيالي

فلا تكبري سوى بقربي امشطي الشيب بجانبي

لم يعجبني ما كتبته لذلك مزقت الورقة وألقيت بها في سلة المهملات.

خرج سيف من المنزل بحثا عن عمل فالأوضاع في العراق سيئة جدا ويجب أن يعيل نفسه، بقيت وحيدة في المنزل أطهو الطعام تذكرت حساء أمي اللذيذ وقررت إعداده سوف يعجب سيف بكل تأكيد قشرت الخضر وبدأت تحضيره لكن خطوات الطبخ هذه كانت قاسية على قلبي ذرفت الدموع وتذكرت أمي تذكرت صراخها أثناء احتراق منزلنا، بينما العبرات تسقط من عيني دخل سيف، سألني لماذا أبكي؟ لم أردّ عليه ولم أعطه جوابا ظنّ أنني أبكي بسببه وحزنا منه لذلك انزعج وزمجر في وجهي بغضب:

"يا للطفولية توقفي عن البكاء ثم خرج من المنزل في استياء".

ينكر الحقائق التي أمامه تتصارع ينكر أنني أحبه، أنني أهواه ويتجاهل كوني أراه كل حياتي وكوني الذي لا يتغير، كل أخطائي كانت من حزن عشته ذلك اليوم أنت لم تكن تعرف مقدار الصراع والحرب التي خضتها ولم تعلم أنّ بكائي سببه موقف أنت لا تعلمه، أنت لم تدرك أنك بكلامك عن دموعي لمست جرحا عميقا بداخلي بل ووضعت فوقه ملحا كي يزيد اشتعاله وها أنا ذا أعيش في ندم لا أستطيع حتى دخول قلبك، لم أعد أستطيع خطو خطوة واحدة نحوك تخفيفا عن أحزانك، أرجوك افهمني أرجوك حاول مرة واحدة أن تعترف بالجزء الجيد فيني، أن تنظر بشفافية وترى أنني الشخص الذي أحبك بصدق دون كره أبدا حتى عيوبك فأول ما أحببته بك هو تلك العيوب التي إحتار الجميع منها، عصبيتك مثلا لماذا أشعر أنك تحاربني كي لا أحبك ثانية؟ كأنّ هناك قوّتان الأولى من قلبي تدفعني للاقتراب منك والثانية من قلبك تدفعني لتركك أيهما سأختار؟ صدقني الموت أهون على قلبي من أن أراك تبتعد عني بهذا الشكل ليست مشكلتي الوحيدة حبي لك لكن أعظمها هو أنت.

لم يعد سيف للمنزل إلا في الليل اعتذر مني عن كل ما اقترفه وأخبرني أنّ أمي نورة اشتاقت لنا ودعتنا لزيارتها.

خرجت أنا وقمر اليوم في زيارة إلى منزل والدتي وكان حديث الجميع حول قضية القتل التي لم يستطع أحد تجاهلها، لقد حضّرت أمي أشهى الأطباق ولاحظت أنّ قمر تحب المحاشي، لقد كانت لطيفة مع والداي وساعدت في أعمال البيت ونبّهتني والدتي كي أتصرف بلطافة هذه الأيام لأنّ أهل القرية أجمعوا على أنني مشتبه به وطلبت منّا البقاء معها في المنزل معها هي وأبي لكنني رفضت، طلبت من قمر أن تلبس حجابها لأننا سنغادر، فور خروجنا طلبت مني التجول قليلا فهي تحب السماء القمراء. التقينا السيد جاك ماكنالي وأخبرني أنّ الشك لا يعتريه اتجاهي وطلب منا الابتعاد عن الدكتور جاكوب استغربنا أنا وقمر من طلبه، دعوناه للمنزل لشرب فنجان قهوة كي يحكي لنا أكثر عن هذا الطبيب الأمريكي.

جلسنا نتحدث وعاد بنا جاك ماكنالي إلى الماضي إلى سنة 2000 حين أخبرته زوجته بحملها وكان الاثنان سعيدان إلى أن اختفت زوجته في ظروف غامضة، ظنّت الشرطة أنها هربت من المنزل لأنها في شجار مع زوجها ولم يهتموا لقضيتها، لكنه كان متأكدا أن مكروها ما أصابها وفي أحد الأيام وجدوا جثتها ملقاة في الطريق السريع لا دليل على الجاني، كان المتهم في هذه القضية هو الدكتور جاكوب لأنها ذهبت لعيادته من أجل الفحص في آخر ظهور لها لكنه خرج من القضية دون إدانة لنقص الأدلة أو عدم وجودها من الأساس، منذ ذلك اليوم والأرق يحاصر نوم المحقق الذي فشل في حل قضية زوجته و جنينها، يطارده طيفها في الأحلام يتذكر الجثة الباردة في كلّ حين، منذ ذلك اليوم وهو يكنّ مشاعر الكره والحقد لهذا الطبيب لأنه على يقين أنه هو القاتل.

بعد هذه القصة الحزينة والغريبة نظرت إلى قمر والتي ذرفت الدموع دبّت رعشة غريبة في جسدي وأردت الإفصاح عن حلمي لكنني تراجعت في آخر لحظة.

تحدثنا عن القضية التي تشغل الناس في القرية فأخبرنا أنه يشك في أمر الطبيب مرة أخرى لأنّ ملامح المرأة الميتة تشبه ملامح زوجته وهذه طريقة القتل المتسلسل، أيضا ما جعله يشك أكثر هو حدوث جريمة قتل بعد شهرين من فتح عيادة الطبيب في قريتنا، أما أنا فجلست في خوف أطرح الأسئلة هل أنا وكياني من قتلنا المرأة أم الطبيب جاكوب حقا هو من فعلها؟

غادر المحقق منزلنا وجلست أنا وقمر التي لاحظت توتري أمسكت يدي وأزاحت قلقي بقولها أنها ستبقى دائما معي.

نمت تلك الليلة مرتاح البال لأنني لم أشعر بالوحدة بفضل زوجتي، لكن سمعت صوت صراخ أقلقني وأنهضني مفزوعا من مضجعي، لقد كانت قمر يبدو أنها ترى الكوابيس أثناء نومها، أحضرت لها الماء وأنرت المكان وطلبت مني ألّا أذهب من جانبها فأنا منذ زواجنا أنام بعيدا عنها،

شعرت بالعار من نفسي لأنني تركتها وحيدة حتى أكلها الخوف والفزع وعدتها أنني لن أبتعد عنها وسأراقبها حتى تنام، مرّت دقائق قليلة حتى عادت جميلتي إلى نومها، أما أنا أمضيت الليل أراقب وجهها الملائكي جمالها الرباني تلك الرموش الطويلة والوجه البريء، كم أنا سعيد لأنها دخلت لحياتي وقررت إظهار بعض الحب لها فهي بالفعل تستحق ولأول مرة لم أشعر بالألم من وجودها، يبدو أنّ الكيان الذي بداخلي قد أعلن الرضا وقبل بهذه الفتاة دخيلة عليّ وعلى حياتي، بزغت الشمس وسمعت صوت الأذان

أيقظت قمر من نوما وذهبنا إلى الصلاة أدّت صلاتها خلفي، جهزنا الفطور سوية، لأول مرة أرى على وجهها السعادة أمضينا يوما سعيدا وأخبرتني أنها دائما ما تشبهني بالغرفة المظلمة لأن أبوابي موصدة والظلام يسكنني، ضحكت من قولها فأخبرتني أنها تشعر بالسعادة كلما رأت الضحكة على وجهي

أزهر الربيع بين قمر وسيف وقضية القتل أصبحت قضية باردة قرر جاك ماكنالي استجواب جاكوب بنفسه، ذهب إلى عيادته وطلب منه استجوابه فوافق.

وجّه سؤالا خطيرا وواضحا للطبيب:

"هل أنت القاتل؟"

كان جوابه: "تنوي لأن تثأر يا بوارو لقد أنصفني القانون في قضية زوجتك ولا دليل ضدّي."

وجّه ماكنالي اتّهاما واضحا للطبيب دفعه لأن يطرده من عيادته قبل حتى أن يستجوبه.

التقى جاك وسهى في مكتبهما وباشر ماكنالي في شرح نظريته حول القضية قائلا: "أظنّ أنها كانت على علم بزيارة شخص ما ولم تكن تتوقع أن يحدث هذا وظنت أنها مجرد زيارة لكنها انتهت بجريمة شنيعة وأنا أشك في جاكوب يا آنسة".

سهى: "يوجد في القرية شخص غريب الأطوار لماذا لا نشك فيه يا ماكنالي؟"

ماكنالي: "لأنّ المنزل لا يبدو عليه علامات اقتحام وبما أنها تقطن في القرية فهي على دراية بخطورة سيف وخوف أهل القرية منه لن تدخله إلى منزلها".

اقتنعت سهى بجواب جاك ماكنالي وزادت القضية تعقيدا.

المرأة التي ماتت كانت جميلة حنطية، قرر ماكنالي مراقبة جميع النساء والفتيات اللواتي يربطهن تشابه بالضحية، أراد أن يسبق القاتل بخطوة ويعرف تحركاته.

رفض كبير المفتشين التفسير الذي قدمه جاك ماكنالي فهو يرى أنها قضية عادية خلفها دافع وليس قاتل متسلسل يتربص بالنساء وهدد ماكنالي بالعودة إلى أمريكا في حال عدم حله للقضية.

طلبت مني قمر أخذ بعض الطعام للمحقق جاك أخذت السلة وذهبت نحو منزله دخلت ورأيت السبورة التي علقها ووضع عليها الخطة المحتملة التي سيقوم بها الجاني، لم يمنعني من الاطلاع على ملاحظاته وقد أيدت رأيه في أنها قضية قتل متسلسل، خرجت من بيت جاك ماكنالي محبطا ماذا لو اكتشفوا في النهاية أنني القاتل حقا، لكن لا دليل ضدي وذلك الحلم مجرد كابوس عابر آمل ألّا يعاد ثانية.

أثناء مروري بأحد المحلات لمحت دبوس شعر جميل جدا وتخيلته موضوعا على شعر قمري دخلت واقتنيته وعدت إلى المنزل وما إن دخلت طلبت منها إغماض عينيها، وضعت الدبوس على خصلاتها الذهبية وأمسكت بيدها وأخذتها نحو المرآة أعجبها شكله وشكرتني على هذه الهدية، شعرت بالسعادة فلو كنت أعلم أنّ دبوسا صغيرا سوف يرسم البسمة على شفتيها لأقتنيت لها العديد من الدبابيس.

بعد تناول طعام العشاء خرجنا إلى الغابة نامت قمر على كتفي وأنا أعزف لها الألحان الجميلة، حملتها ووضعتها على السرير وأمضيت ليلي في مراقبة نومها فما أجملها.

الفصل 15 :

أثق بك

كان سيف نائما وهو قرير العين رأى في حلمه رجلا أسقط امرأة على الأرض وأطلق رصاصة بمسدسه داخل فمها ثم بتر ساقها وكتب رقم اثنين بالدم، وضع ورقة فوق رأس المرأة وغادر المكان في خفية دون أن يراه أحد، استيقظ الفتى من نومه مضطربا وخائفا ينتظر خبر الجريمة الثانية، يشعر بالحيرة فلماذا تراوده أحلام كهذه؟ بتفاصيل لا يعرفها سوى القاتل نفسه.

لو كنت أنا القاتل كيف يتسنى لي الوقت للخروج من المنزل دون أن تنتبه قمر لذلك؟ وأين آثار الدماء؟ إنه لمن الغريب أن تختفي، لن أفصح عن سري لأحد ولو كان الكيان هو القاتل سوف أصمت لن أقحم نفسي في المشكلات، لكنني أخشى من أن يقضي القاتل على قمر، لا أريد لها الأذى سوف أختلق عذرا وآخذها للعيش في منزل العائلة، تذكرت أنني سأبدأ عملي في الأسبوع القادم وهذه حجة مثالية لإرسالها للعيش بعيدا عني.

وصل بلاغ آخر لجاك ماكنالي لقد تمّ إيجاد جثة أخرى في منزلها أيضا، الغريب هذه المرّة أنّ المرأة مقتولة بطلقة رصاصة وليس كالمرة الفارطة لكن يبدو أنه نفس الشخص وهذه ضحيته الثانية، بدأ ماكنالي وسهى وفريقهما التحقيق ولاحظ الجميع وجود شيء غريب في المنزل هو كمية الدماء القليلة، والسؤال الأغرب لماذا تفتح امرأتان منزلهما لشخص غريب ينتهي به المطاف بقتلهما؟، قضية غريبة ومعقدة والجملة التي يتم وضعها أغرب "سافر الجسد إلى الموت مبتور الساق"، قال ماكنالي بصوت خافت يتخلله الحقد: "هذا شخص يريد أن يستولي على أجسادنا ودمائنا لإشباع شهيته القاتلة".

هذه المرة طريقة القتل مختلفة وقد أعلم الفريق رئيسهم ماكنالي أنّ سلاح الجريمة موجود في المنزل وهو ملك لزوجها، تنبه جاك لأمر مهم وهو أنّ القاتل في كل مرة يحاول توريط الزوج لكن الموضوع واضح هم أمام قاتل متسلسل وهذه ليست الضحية الأخيرة.

"اسمعي يا سهى كل ما يحدث يقلقني لم نتمكن حتى من معرفة الخطوة القادمة له القرية صغيرة سيفزع الجميع علينا إيجاد حل بأسرع وقت"

بدت علامات القلق على الجميع، وصل الخبر إلى أهل القرية وإلى سيف الذي انطلق بسرعة البرق نحو منزل الضحية من أجل رؤية جاك ماكنالي أخبره ماكنالي بتفاصيل القضية، عرف سيف أنها تشبه حلمه بشكل كبير وفسر قلة الدماء في المنزل بأمرين الأول أنّ مسرح الجريمة ليس المنزل بل تمّ نقل الجثة بعد قتلها والثاني أنّ القاتل مسح آثار جريمته واقترح على جاك ماكنالي استخدام مادة اللومينول – هي مادة تتفاعل مع الهيموغلوبين الموجود في الدم –

تنبه جاك ماكنالي لهذه الفكرة وقرر استخدام المادة فعلا وفور تعريض المكان للأشعة البنفسجية أصدر ضوءا أزرقا كبيرا دليل على أنّ الدماء قد تمّ مسحها بالفعل.

والتساؤلات تبادرت إلى ذهن المحقق: "لماذا يمسح قاتل متسلسل آثار جريمته؟"

ليس في المكان بصمات ولا أدلة والقضية معقدة وكل الجرائد تتنافس للكتابة عن هذا الخبر والشرطة في ضغط كبير، العديد من التهديدات وجهت لجاك ماكنالي تهديدات بالعودة إلى أمريكا لو بقي القاتل طليقا هكذا.

أما سيف فقد أخذ بقمر إلى منزل والدته بحجة القاتل والعمل وبدأ عمله في إحدى المزارع، لم يكن يفكر سوى في القضية كان خائفا من تورطه فيها رغم أنه كان يحب الدم والقتل في صغره إلا أنه خائف من أن يخسر ثقة قمر ونظرتها له، قرر إخبارها لو تكرر الأمر ثانية فهي حكيمة تجيد التفكير.

أما قمر فكانت تزور خالتها بين الفترة وقرينتها تفكر في سيف والذي أصبحت تراه ليلا فقط، في كلّ دقيقة تتذكر اللحظات السعيدة التي أمضتها معه رغم أنه لم يعترف بحبه لها لكنها كانت على يقين أنها سرقت مهجته كما سرق دقاتها.

لقد استكشفت غرفة سيف وقرأت كلّ الروايات التي طالعها هو من قبل شعرت بالملل رغم أنّ نورة لم تتركها لحظة واحدة، لكنها أرادت أن يكون سيف بجانبها.

عاد سيف ليلا كعادته ورفض تناول العشاء، صعد نحو غرفته وجلس على الأريكة دخلت قمر عليه وجلست بجانبه ولأول مرة يضع رأسه على كتفها، كانت محاولة من سيف ليهرب من العالم المتعب نحو الدفء والحبّ، طلبت منه أن يعزف لها بالكمان وعدها أنه سيعزف لها ولكن ليس الآن.

علم الطبيب جاكوب من أهل القرية أنهم يعتقدون أنّ سيف هو القاتل المتسلسل، أما هو أكمل عمله بشكل عادي ما أثار حقد جاك ماكنالي اتجاهه أكثر فأكثر.

لا دليل لا حلول ولا تفسير قضية باردة لا يمكن غلقها ولا حتى حلها ينتظر الجميع ظهور جثة أخرى ربما تحمل زلة من القاتل، مرت الأيام ولم تظهر جريمة أخرى في الوسط، قرر جاك ماكنالي التحري أكثر حول الطبيب جاكوب وعرف أنّ الضحيتين من مرضاه ما أثار شكوكه أكثر أخبر سهى بذلك لكن ما من دليل يدينه.

صحيح أنّ الأحداث متوترة والخطر محيط بكلّ القرية إلا أنّ حماس جاك ماكنالي قد ارتفع فهذه أول قضية قتل متسلسل يشرف عليها، تذكر زوجته وملامحها تذكر أنها تشبه الامرأتين فإن كان جاكوب هو القاتل فعلا فهذه ثالث ضحية له وليست الثانية.

كانت فكرة طيبة من سيف أن أحضرني إلى منزل والدته لكنني أشعر أنّ في الأمر سرا ما يبدو مبعثرا وتائها كأنه يحمل هموم الدنيا كلها على ظهره، سأحاول إبعاد القلق عنه رغم أنني أكثر قلقا منه، جلست أطالع الجريدة وأخبار الجريمتين لاحظت أنّ المدة الزمنية بين كل جريمة وأخرى ليست بالكثيرة، فلتحمينا يا الله.

عاد سيف مع منتصف الليل كان حزينا ومرهقا حاولت الحديث معه وما من جدوى لقد نام بسرعة، أمضيت الليل في تأمله، و في الصباح أخبرني أننا ذاهبون في نزهة في المساء، جهزت الأغراض والسعادة تغمرني وكانت أمي نورة وأبي سالم أكثر سعادة مني وصلنا إلى الغابة وجلسنا في المكان الذي التقينا فيه لأول مرة، بدأ سيف بعزفه على الكمان، بينما أنا منسجمة مع عزفه توقف فجأة وقال: "أحبك"

سمعت حينها عزفا آخر غير ما تصدره أوتار الكمان من ألحان لقد كان صوت قلبي الذي قفز من مكانه وأخيرا أراح قلبي وأزاح عنه الهموم. استمر في عزفه دون أن يحرك ساكنا أما أنا فكل الضجيج كان داخلي كل خلايا جسدي كانت ترقص كم أريد الرقص إنها لحظة تمنيت أن تدوم تمنيت أن تتوقف الساعة وتحبسنا عقاربها، تمنيت أن أموت بين يدي سيف وأن يكون هو آخر وجه أراه، كانت أمسية لطيفة والجوّ كان جميلا رأيت في هذا اليوم أنقى جانب من زوجي الذي قالوا عنه مظلم وشرير لقد ظلموك يا سيف عدنا إلى غرفتنا بعد تعب يوم طويل

قلت له: "أ لا يريد صدرك أن ينوء لي بأسراره؟"

استرسل قائلا: "ألم يكفيك قنبلة الأسرار أنني أحبك؟"

قلت: "ما أجمله من سر ولكن أشعر أنك تخفي شيئا خطيرا"

قال: "لا تستبقي الأحداث يا قمري سأخبرك بكل شيء ولكن في الوقت المناسب صدقيني في الوقت المناسب".

***

أرجو أن تكون أحداث روايتي قد نالت إعجابك وبما أنك وصلت لهذه الصفحة أريد تحذيرك فما ستصادفه بعدها سوف يصدمك، أنت داخل صفحات روايتي هذه أروقتي وشخصياتي وأنت زائرنا فاحذر منا ومرحبا بك في المتعة والغموض، قرر الآن إكمال الطريق معنا أم التوقف هنا؟

الفصل 16:

لا تخافي

في مكان ما وفي وضح النهار أخذ شخص ما وشاحا من شريط الغسيل الذي في خارج المنزل ودخل نحو أحد البيوت ببساطة لفّ الوشاح حول عنق امرأة حنطية حتى أنهى حياتها، ثم بتر ساقها وهو يأكل الشوكولا كتب على الأرض رقم ثلاثة ووضع الورقة المعتادة وخرج من المنزل دون أن يراه أحد.

في نفس الوقت وفي مكان آخر كان سيف يحلم بكابوس جديد بوصف أدقّ كان يحلم بجريمة جديدة سيسمع عنها الجميع، فتح عينيه ولمح قمر جالسة أمام المرآة تسرح شعرها، طلب منها أن تقترب منه وألّا تتركه أمسكت بيديه وشعرت بالقشعريرة فيده باردة جدا سألته ما الذي حدث له؟ قرر هنا أن يبوح لها بسر الأحلام التي تراوده ليلا.

بعد أن أخبرها سيف وحكى لها عن الجريمة الثالثة، شعرت بالخوف والذعر وسرعان ما طردت الأفكار الغبية من رأسها وقالت في نفسها:

"مستحيل سيف لا يفعلها،" واسته و زرعت في رأسه أكداسا من الكلمات المريحة ووعدته أنها ستحفظ السر وتبقى معه حتى النهاية وأنها واثقة من براءته.

وقف جاك ماكنالي أمام الجثة الثالثة لقد اتخذ هذا المجرم من القتل لعبة مسلية، كانت المرأة ملقاة على الأرض والوشاح ملفوف على عنقها لقد أزهقت روحها بطريقة سيئة وكالعادة الساق مبتورة والورقة والرقم ثلاثة اشتد الوشاح على عنقها حتى خنقها، بعد التحقيقات اكتشف ماكنالي أنّ الوشاح لزوج الضحية هذا يعني أنّ القاتل يريد توريط

الزوج مرة أخرى. هذا الوضع جعله يفكر أنّ في الأمر سرا ما قال والعبرات تجري على وجنتيه: "هيا يا آنسة لا وقت لدينا إلى متى ستقتل النساء؟"

الضحية هذه المرة هي زوجة أغنى رجل في القرية صاحب المزرعة التي يعمل فيها سيف ولهذا كان على ماكنالي استجوابه مرة أخرى هو وزوجته قمر. لم يجد في حديثهما أيّ جديد يذكر فالجريمة حدثت في يوم عطلة سيف لكن لاحظ ماكنالي أنّ الاثنين متوتران كأنهما يخفيان شيئا.

زوج الضحية أيضا لم يبدي أيّ ردّة فعل تدل على أنه قاتل بل كان كئيبا حزينا على فقدان رفيقة دربه.

عاد ماكنالي إلى مكتبه وقال لسهى: "أ لم تلاحظي شيئا جديدا شيئا يربط بين الضحايا على غرار لون البشرة وشكل النساء؟"

سهى: "تقصد أنّ جميعهن متزوجات وليس لديهنّ أطفال وكل واحدة زوجها يسافر كثيرا ويتركها وحيدة في منزل من السهل دخول قاتل متسلسل له؟"

ماكنالي: "بالضبط هذا سيسهل علينا التحقيق، أظنّ أنّ هذا القاتل يريد أن يريح النساء من الأحمال الثقيلة والوحدة".

قال في نفسه: "رغم أنني أثق في الفتاة اللطيفة قمر لكنني مقتنع أنها تضمر في جوفها سرا خطيرا قد يسلط الضوء على ظلام القضية أو يزيح عنها غموضا لقد كانت نظراتها تبدي خوفها و جزعها، على أيّ حال ربما هي أيضا خائفة من الجرائم التي تحدث".

جلست قمر في غرفتها تكتب ويدها لا تقوى على حمل القلم ترتجف وتنتظر حضور سيف، فور دخوله لمح الدمع في عينيها أدرك حينها أنّ الشك قد اقتحم قلبها وحطم أسوار الحب والثقة، اقترب منها في هدوء وقال لها:

"أهربي عزيزتي لك الحق في المغادرة هناك قاتل قد أكون أنا هو اذهبي ولا تنظري خلفك".

حملق كل منهما في وجه الآخر بدهشة نظرت له قمر نظرات متوسلة. أدرك أنها تطلب منه إخبار الشرطة أدرك أنها لم تعد تقوى على إخفاء سر كهذا، ظهرت الشخصية الثانية لسيف زمجر فيها بغضب وقال لها:

"إن أفشيت هذا السر تحملي العواقب".

ثم نام على الأريكة دون أن يلتفت لقمر أو حتى يزيح الغموض والدهشة من جوارحها.

جلست هي الأخرى تكمل ما كانت تكتبه:

"ها أنا الآن أجلس في يدي قلمي وأمامي ورقتي، أفكر في اللاوجود أسير بزحام المشاعر والأشخاص وكلّي ظلام دامس، لم أرتطم بشعور غير حبي لك وإعجابي لم يلفتني بشر سواك، أنا الآن بكامل تركيزي عقلي خالي من ثمل السهر يحاصرني الأرق، أحاول الابتعاد والهرب وعيناك تجبراني على الغرق، لمحتك صدفة وعرفت اسمك أيضا صدفة، كنت عبارة عن مجرد أشلاء، ثم أنت جئت لتعيدني، أشعر أنّ قلمي لم يعد يجد ما يقول أنا أثق بك، لكنّ الارتباك الذي يعتريك كل هذه الأحداث والقصص دفعتني للخوف منك دفعتني للشك، أعرني بعضا من صبرك فالجنون يأكل بصيلات عقلي".

قررت كتم السر فهذا الرجل زوجها ولو دخل السجن بسبب جريمة لم يقترفها ستكون هي أكثر الأشخاص ندما، لكنها كانت تشعر بالأسى على النساء وكلها شك وتساؤلات ماذا لو كان هو القاتل بحق؟ ماذا لو كان كيانه جنيا يحركه للقتل؟

لكن لا إجابة فكل الأسئلة التي نطرحها للطبيعة لن يجيب عليها سوى الزمن، الأمر فظيع وخيالي في نفس الوقت أحلام تراود شابا بجرائم قتل يساوره الشك هو وزوجته فكرة خيالية ولكنها تسكن في الأذهان.

في مكان آخر أناس خائفون ومحقق لم يعد بوسعه سوى انتظار الجرائم شخص محترف هكذا يقوم بجرائمه في قرية صغيرة لا يلمحه أحد ولا يعترض طريقه كائن.

ترك سيف عمله في المزرعة وجلس في المنزل وقرر ألّا ينام كي لا يرى حلما آخرا.

في إحدى الليالي كان سيف جالسا في غرفته مع قمر غارقين في الصمت يراقبان هطول المطر، لم يخرج سيف من غرفته منذ شهر، غفى دون أن يشعر لدقائق معدودة رأى فيها أحداث الجريمة الرابعة،كانت الضحية هذه المرة هي إمرأة عجوز قتلت خنقا مثل آخر ضحية، استيقظ سيف من نومه مرعوبا وأخبر قمر بأحداث الحلم فقالت له:

"أنت لم تخرج من هذه الغرفة لمدة شهر هذا يعني أنك لست القاتل خلف هذه الأحلام سر ما."

كنت هذه الليلة حارسا للقرية، الليل هادئ تبدد سكون الليل فجأة بعد أن سمعت صوت صراخ رجل، ركضت بسرعة نحو مصدر الصوت وجدت شابا في العشرينات يصرخ يبكي ويلطم خديه أمام جثة جدته. غيّر القاتل أسلوبه هذه المرة اختار امرأة عجوزا وحيدة وأرملة.

لم أر في حياتي مثل هذه البشاعة من القتل لقد كانت العجوز ممددة على الأرض ونائمة في هدوء ساقها مبتورة وأمام جثتها رقم أربعة، تسللت أضواء الفجر إلى المنزل، خرجت منه بغية التنفس لقد اختنقت بعد كل هذه الأحداث الغريبة القاتل لازال حرا طليقا.

كل من في القرية كان نائما والمحلات مغلقة ما عدا عيادة الدكتور جاكوب لقد شككت في أمره مرة أخرى ودخلت العيادة، تسللت نحو مكتبه وجدته جالسا يطالع الأخبار.

قلت له: "هل يوجد بين مرضاك امرأة تدعى خديجة؟"

كرر الاسم بصوت خافت ثم قال: "المرأة العجوز؟"

استطردت قائلا: "نعم"

قال: "هي مريضتي هل ماتت؟"

صعقتني إجابته وسرى الشك في جسدي كما تسري الدماء فتحت مقلتي وقلت له: "وما هذا السؤال؟"

ردّ عليّ: "أنت لا تزورني إلا حين يموت شخص ما ولهذا استنتجت أنّ المنية وافتها".

رجل خبيث وماكر مثله يجيد اللف والدوران وإخفاء الحقيقة خرجت من عيادته محبط الآمال.

مررت بكل البيوت كي أحذر النساء والعجائز طلبت منهم إغلاق الأبواب بإحكام، من بين تلك البيوت منزل قمر لقد تحدثت معها وحذرتها فالخطر محدق بالجميع، أخبرتني أنّ لديها ما تقوله لي فطلبت منها أن تأتي إلى مكتبي في المساء.

استجابت الفتاة لطلبي وقدمت لي مساء اليوم أخبرتني شيئا مجنونا لم أكن أتوقعه شيء قد يغير أحداث القضية إلى منحى آخر، شحب لونها وجحظت عيناها وقالت في فزع: "أنا أثق فيك يا سيدي وأثق في سيف ولكنه يرى أحلاما غريبة، يرى تفاصيل الجرائم قبل أن تحدث وأنا خائفة يا سيدي خائفة من أن يصيبه مكروه ويفقد أعصابه، أنا موقنة أنه ليس القاتل ولكن كل ما يحدث يزرع الشك في نفسي وقلبي".

ما هذا الأمر الغريب والعجيب؟ أحلام؟، قدمت لها قطعة سكر فسرت الدماء في وجنتيها وعاد وجهها كما كان، طلبت منها العودة إلى المنزل وإغلاق هذا الموضوع للجدران آذان تسمع.

أمضيت تلك الليلة وأنا أفكر في كلّ الأفكار المجنونة، أيعقل أن يكون سيف هو القاتل؟ ماذا عن جاكوب؟

سيطرت على كل الأفكار والاستنتاجات الغريبة وقررت استجواب سيف بنفسي وسؤاله عن موضوع الأحلام.

بمجرد طلوع النهار ذهبت مسرعا نحو منزله وطلبت مقابلته، خرجنا سويا وتجولنا بين البيوت وقلت له بوضوح: أريد أن تحكي لي عن كل الأحلام التي راودتك.

تغير لون وجهه ولم ينطق بحرف واحد وغادرني عائدا إلى منزله.

كنت في المطبخ أطهو الطعام مع أمي نورة، سمعنا صوت الباب يفتح لقد عاد سيف من جديد وعلامات الغضب مرتسمة على وجهه وطلب مني ملاقاته في غرفتنا، تركت ما بيدي وصعدت، وبشكل فاجأني ولم أتوقعه صفعني على وجهي وطلب مني مغادرة المنزل، جاوبته والدمع على عيني كقطرات الندىّ

" لكن لماذا؟"

استرسل قائلا:" اطرحي السؤال على جاك ماكنالي".

فهمت حينها أنّ المحقق أخبره عن موضوع الأحلام جمعت ثيابي وارتديت حجابي على أمل أن يغير سيف رأيه ولكن ما من جدوى، معه حقّ تصرفي خاطئ كان يجب أن أحفظ السر، غادرت المنزل وكانت أمي نورة حزينة، لم أرد العودة إلى منزل خالتي، حملت مفتاح منزل الغابة وقلت لسيف أنني سأمكث هناك اعترفت له بحبي وقلت له أنني فعلت ما فعلته من أجل مصلحته لم يرد عليّ، سرت في خطى منكسرة نحو الغابة ودعت روحي وقلبي وكل حياتي في ذلك المنزل لقد خسرت زوجي بعد أن وقع في حبي.

الفصل 17:

أنا المذنب

أتى الفراق بعد أيام قلة ودون رجعة

ورأيت بوادر البعد منك في نظرة

تسعر القلب حين لمحتك آخر مرة

تبتعد بثقل الخطى وأحاطت بك قسوة

لم أرى منك حزنا أو من العين دمعة

سرت بنفس طريقك وقبلت كل خطوة

رمقتك وأنا أتوسل والروح غدت ممزقة

ألم تذكر أيام الهوى يوم شبهتك بغرفة مظلمة؟

ألم تذكر حين أبحرنا وقلت أنك موجة؟

ونسيت أنّ الموج يأتي ويذهب يا من غادرني

ها أنت ذا رحلت وغادرت من فمي البسمة

وحولت كل المشاعر التي في القلب الى كلمة

صار حبنا بغضا رغم أنّ قلوبنا خفاقة للقاء مشتاقة

زهقت روحي وذكرك قلبي حين الغسق فأنت البهجة

انتظر عودتك فروحي تخشى نار البعد وبها لن تحرقا ...

كتبت القصائد في حبك يا سيف ولم تعد.

تزورني أمي نورة كل يوم، تحضر لي المال والخضر والفواكه أما سيف فلم أراه منذ أسبوع كامل، يا ترى ألا يشعر بالفضول الذي أشعر به أنا؟ ألا يشتاق لي كما أشتاق له؟ كم أريد رؤيته ولو للحظة واحدة، قررت الخروج اليوم من المنزل لعلي ألمحه في الطرقات أو لعلي في المكتبة ألقاه. ذهبت نحو المكان الذي تواعدنا فيه أكثر من مرة ومشيت بين الكتب أتذكر وسامته وعيناه وفي داخلي شعور غريب، توجهت نحو النافذة لمحت حبيب قلبي مرتديا الأسود وقد ذاب خافقي فيه عشقا للمرة الألف جلست في طاولتي وكتبت:

"كم لاق بك الأسود

كسواد سماء وجهك قمرها

كم لاق بك التبسم

كوردة فتحت أوراقها

واشتعل قلبي كموقد

كان ثوبك الأسود حطبه

كم لاق بك الأسود

كأنّ البدر تنازل عن حسنه

كأنّ الشمس أعطتك نورها

ليست مبالغة لكنه وجهك

يبدو كالصبح بعد ليل متعب

أشرق فلا شروق بعدك

لا تسمح للغروب بأن يأخذك

ما الحب سوى ثوبك الأسود

هذا الدفتر هو أنيس روحي فكلما شعرت بغدر البشر والحزن من عالمي كتبت داخله.

عدت إلى المنزل وقت الغروب ولأول مرة أشعر بالخوف بكيت كثيرا جلست على سجادتي أدعو الرحمان، هذه الوحدة تمزق روحي ذرفت الدموع، تمنيت لو أنّ سيف يدخل من الباب الآن " أنا خائفة"، شعرت بوقع خطوات خارج المنزل في البداية شعرت بالذعر ولكن اعتقدت أنّ سيف قد اشتاق لي وجاء في زيارة، دقّ الباب فذهبت مسرعة لأفتحه كان شخصا مغطى بالقماش الأسود، خفت وأغلقت الباب في وجهه لكنه كسر زجاج النافذة ودخل إلى المنزل، يحمل في يده سكينا أظنّ أنه هو إنه القاتل المتسلسل أعرف هذه العينين وهذا الجسد إنه .. إنه.

لم يسمح لي زائري المفاجئ بالتفكير وانقضّ نحوي بوحشية وأدخل في قلبي السكين، شعرت به يخترق فؤادي ويمزق شراييني لمحت أمي وأبي بين عيوني تجسد أمامي سيف همست وأنا أرتجف س..يف، ترنحت وهويت على الأرض وفقدت الوعي.

في صباح اليوم التالي استيقظ سيف من نومه، وجد أمه في غرفته تراقبه فور فتحه لعينيه ناولته سلة الطعام وطلبت منه أن يأخذها إلى منزل الغابة قبل سيف فقد كان يفكر في إرجاعها إلى المنزل لأنّ الذنب الذي اقترفته ليس بالكبير، ارتدى ثيابه وخرج في سعادة.

التقى ماكنالي في الطريق وأخذه معه سار الاثنان وهما يتحدثان حول أمور الدين، جاك ماكنالي مسيحي لكنه يريد معرفة الكثير عن دين الإسلام.

وصل الاثنان إلى منزل الغابة وأصابت الدهشة كليهما، الباب كان مفتوحا على مصراعيه، شعر سيف بالخوف وألقى السلة من يديه دخل مسرعا وهو يصرخ: "قمري ..."

دخل المنزل وكان المنظر شنيعا، وقف ماكنالي أمام الباب في دهشة، كانت قمر نائمة على سجادة الصلاة غارقة في دمائها مبتورة الساق جسدها بارد وهادئة، على وجهها الورقة وأمام جثتها رقم خمسة، اقترب منها سيف وقدمه غير قادرة على حمله، أزاح عنها الورقة التي كانت كاللثام، صرخ بأعلى صوت لديه اخترق صوته صدر ماكنالي سقط على الأرض باكيا وعادت له نفس المشاعر، تلك التي اجتاحته يوم وفاة زوجته الحامل، عانق سيف الجثة وبقي على حاله لنصف ساعة يبكي ويصرخ ويطلب منها العودة ثانية، لكن لا جدوى فالميت لا يجيب النداء.

حملت جثمانها على كتفي، لم أستطع حمله رغم ضخامة جسدي لم أقوى على السير، طلبك ملك الموت وما من اعتراض لديّ وهذا ذنبي يا عزيزتي طردتك، ألقيتك في بحار الوحدة، تركتك داخل الغابة لوحدك دون تفكير، وإن جبت العالم بحثا عن ترياق لن أجد من يشفيني من الاشتياق

لم تذوقي مني سوى الأسى سامحيني يا قمري، من سوف يفر من وفيته؟ ماكنت من قبل كاتبا ولكنني الآن أريد أن أخط سطور الرثاء فناولوني القلم، أعينوني على حمل هذا النعش.

وصلنا إلى المقبرة وأودعتها الله ودعتها وتركتها داخل التراب، لكنها تخاف يا الله، تكره الوحدة لطالما أرادتني بجانبها، كانت جنازتها خفيفة كروحها الطاهرة، عدت إلى المنزل مكسور الخاطر أما أمي فلم تحدثني أبدا كل العيون أبدعت في لومي، جاء سامر والخالة إلى منزلي وبخني الاثنين وغادرا، تبا لنفسي ولرجولتي تبا ليدي التي صفعتك.

بحثت في أغراضها وشممت عطرها، وجدت دفترها طالعت كل ما كتبته عني وعن حبها لي، ألعن نفسي ألعن كياني وحظي ألعن القاتل، تذكرت أمر الأحلام والقاتل المتسلسل.

قررت فعلها.

خرج سيف في صباح اليوم التالي، توجه نحو مركز الشرطة

طلب مقابلة جاك ماكنالي، فور جلوسه معه ومع سهى اعترف على نفسه وقال:

"أنا القاتل الذي تبحثون عنه".

انتفض ماكنالي من مكانه لأنه متأكد أنه لم يفعلها وأغلق الباب وطلب منه أن يصمت، لكنّ سيف كان مصرا وحكى لهم أحداث الجرائم بالتفصيل تفصيل دقيق لا يعرفه سوى القاتل، طلب ماكنالي من سهى أن تصمت ولكنها أصرت على الإمساك به، في النهاية هي محققة وأمامها شاب يعترف على نفسه، وضعت الأصفاد بين يديه وقع على ورقة اعترافه

شعر جاك ماكنالي بالإحباط فهو على يقين أنّ القاتل ليس سيف لكن ما باليد حيلة.

23 من شهر يوليو

محاكمة سيف

وقف سيف أمام القاضي ونظرات أهل القرية التي وجهت نحوه كانت نظرات حقد واستياء، لقد تمّ إتهام سيف بكل القضايا، حاول محامي سيف أن يثبت عكس ذلك لكن اعترافه حال دون البراءة، نطق القاضي بالحكم الذي لم يكن مرضيا للجميع، الأدلة كانت ناقصة واعتراف سيف فيه نوع من الغموض، قرر القاضي أنّ هذا قتل من الدرجة الثانية حكم عليه بالسجن مدى الحياة حسب قانون العقوبات العراقي إلى حين إيجاد أيّ دليل آخر.

تذمر الرأي العام وتمت إحالة سيف إلى سجن بغداد ليمضي فيه سنين سجنه.

لم تتحمل نورة الخبر وضاق صدرها وصدر زوجها من نظرات أهل القرية وكل الكلام الذي يوجهونه لهم، قرروا السفر إلى بغداد والاستقرار هناك.

أما جاك ماكنالي فقد كان محبطا، متأكدا أنّ سيف بريء فقد رأى حزنه على قمر بعينيه وقد رأى حبهما لكن حسبه من هذه القضية أنّ الجاني اعترف.

ما هذه الحياة التي تظلم الناس؟ ما هذا القدر الذي يلقي بنا لأشياء لم نكن نتوقعها؟ ماتت قمر تلك الفتاة التي تشبه الشمعة لكنها ذابت ولم يبق منها سوى الفتيل، لم تبقى سوى روحها الطاهرة تزور سيف دائما.

استمر الدكتور جاكوب في عمله وعادت القرية إلى حال الهدوء الذي كانت عليه ظنا منهم أنّ القاتل محشور في السجن مثل الفأر.

بعد أسبوع من اعتقال سيف سافر جاك ماكنالي إلى بغداد لزيارته لكنه رفض مقابلة أحد.

الفصل 18 :

قاوم

أولى أيامي في السجن كانت أشد عقاب أواجهه، لأنني كنت سبب موت زوجتي، بكيت قهرا ولمت نفسي وحسمت أمري بالتواجد بين القضبان لقد قررت آخرتي سأموت هنا وأتعفن داخل هذا السجن، ينتابني إحساس بالذنب لم يعد لديّ خيار سوى الموت، كان معي في نفس الزنزانة رجل عجوز يرمقني دوما بنظرات غريبة، لم أفتح فمي بكلمة منذ أول يوم لي هنا ولم يدخل فمي سوى الماء أعيش عليه هو فقط، كان ثمن كلامي الجارح وطردي لقمري هو الندم وما أغلاه من ثمن، تتمزق روحي كل يوم وأشعر بالألم يشتد عليّ، في أحد الأيام قرر العجوز الحديث معي أخبرني أنّ داخلي وحشا عليّ القضاء عليه، إنه أول شخص بعد قمر يعرف بموضوع الكيان كلهم ظنوا أنني أعبد الشيطان من هذا الشخص الذكيّ الذي اكتشف أمري في قلة من الأيام؟، لقد كان الفضول يقتلني لطالما أردت معرفة حقيقة الكيان، لقد بدأ في تلاوة آيات من سورة الجن وأخبرني أنّ الذي بداخلي جني، لقد توقعت ذلك سابقا لكن كيف عرفت هذا؟، سألته فأجابني

" لأنني مثلك"، لديّ قدرة غريبة أشعر بكل شخص يحمل داخله شيئا كهذا، ناولني مصحفا وطلب مني المواظبة على قراءة القرآن والصلاة فهذا سيعينني على السيطرة عليه، أخبرني بعد أن حكيت له قصتي أنّ الكيان الذي بداخلي أراد تحذيري من هذا القاتل لكنني لم أفسر تهديداته على النحو الصحيح وظننت أنني أنا القاتل الذي يغتال النساء.

أعيش أتعس اللحظات في حياتي وأقساها يتدفق إلى داخلي شعور غريب ممزوج بالراحة في كل مرة أتلو فيها كتاب الله تعالى. كم أنه من المريح أن يعود المرء إلى ربه.

في كل يوم أتحرر من كل القوة التي كانت تتحكم بجسدي أطلب من نفسي أن تقاوم وتصبر وتصمد في وجه الألم، أقاوم في ضراوة من أجل التخلص من كلّ الظلام الذي كانت تكرهه قمر، يتجسد تعبي في الليل على شكل قمر تقف أمامي وتنظر لي، سمعتها في هذا اليوم تقول لي بوضوح: تخلص من جناحيك يا سيف حلّق نحوي، لقد كان طيفها جميلا مثلها وكلما سرت نحوها مددت يدي لأمسك بها كانت تهرب من بين يدي لأنها مجرد خيال أراه أنا وفقط ما أجمل عالم الأحلام عندما تكون هي فيه، لقد ساعدني العجوز كأنني ولده وكلما تعبت كان يقرأ بعضا من القرآن على مسامعي أشعر بالراحة بالتواجد معه، رجل حكيم مثله موجود داخل سجن ترى ماهي حكايته؟

في إحدى الليالي اضطجع على الأرض وأخبرني بحكايته لقد قتل زوج ابنته ثأرا لها لأنه ضربها حتى أجهضت جنينها وماتت حزنا عليه، فارقت هذه الحياة وتركت الرجل الوحيد وحده في حزن وشعور يتغلغل داخله إنه إحساس شديد بالرغبة في الانتقام، ترصد بالرجل حتى خرج من منزله ضربه ضربا مبرحا ثم طعنه بالسكين، دخل السجن منذ سنوات عديدة لكنه ندم على فعلته فلو ترك الحساب لرب العباد لما اقترف ذنبا مثل هذا.

خلّقت هذه القصة في عقلي فكرة شيطانية لن أعترض عنها أبدا.

وجودي داخل هذا السجن العفن أعاد لي سنينا أضعتها، ليتني استمتعت بأطباق أمي عوضا عن أكل الخبز اليابس والحساء الذي ليس له مذاق، ليتني بقيت في فراشي عوضا عن سرير النوم على الأرض أكثر راحة منه، وجودي هنا غيرني كثيرا.

في كل صباح أكتب اليوم بالطبشور على الجدار كي لا أنساه، لم أحلق لحيتي منذ زمن طويل، أما أمي وأبي فلا أعرف ما الذي حلّ بهما، أرفض مقابلتهما وجاك ماكنالي ذلك

الرجل الطيب لم يغب عني أبدا لكنني رفضت زيارته كغيره، كان الزائر الوحيد الذي تمنيت رؤيته هو قمر لكنني لا أراها إلا في الخيال، انقطعت عني الأحلام وسيطرت على الكيان والآن أنتظر الفرصة التي ستقودني لقاتل حبيبتي لأنتقم منه، لكنني داخل السجن وبإرادتي ولن أستطيع الخروج منه ولو أردت ذلك فورقة اعترافي هي أول شاهد ضدي.

أسمع صوت النحيب والصراخ كأنه صوت قمر، يا إلهي كيف كان شعورها حين قتلها كيف كان؟

كلما سمعت تلك الأصوات بدأت في البكاء كطفل صغير كان العجوز يحتضنني بقوة ويربت على كتفي ويشد على قبضتي كلما رأى حالي، أغمض عيني وأتحسر على وفاتها كلما تذكرتها أين أنت يا قمري؟ حكى لي السيد العجوز عن زوجته وابنته الثانية، كان سعيدا كلما تذكرهما لكنهما لم يزوراه منذ دخوله السجن، مسكين هذا الرجل.

ذات يوم زارني ماكنالي كعادته وخرجت لمقابلته هذه المرة

فور رؤيته لي اتسعت حدقتا عينيه وفتح فاه من شدة الذهول، لقد كان شعري أشعثا ولحيتي تغطي وجهي، هزل جسدي أيضا ولم أعد على نفس حالي الذي عهدني عليه.

بكيت حين لمحته وطلبت منه أن يخرجني من هذا المكان

انسابت نظرات الحزن من جاك ماكنالي نحوي وأخبرني أنه لن يستطيع إخراجي من هنا لأنني اعترفت ولا دليل يظهر عكس ما اعترفت به، سألته عن حال أهلي فأخبرني أنّ أمي مريضة جدا وفي حال سيئة.

الفصل 19:

ندم ثاني

كيف أصبحت هكذا؟

حزن يفتت أضلعي

دموع تحفر خدي

كيف غدوت خائر القوى؟

وفاتها تقطع قلبي

تدفعني إلى جنوني

وتدفع بأناملي لتكتب أشعاري

قد احتجت منذ زمن إلى روحي

وحين أتتني فقدتها وفقدتني

أيها الحب لنفترق قليلا

ألا تبصر قلبي الضرير؟

الذي لم يجد للفرح طريقا

واكتشف أنّ للحزن ألف سبيلا

أسأل الحزن ليلا ألّا يزيد اعتياد

فيسكن داري وينسى الذهاب

أنا قويّ في النهاية

بل ضعيف أمام الحب وذي الحكاية ...

مرت ثلاث سنوات منذ دخولي للسجن وقد أخبرني جاك ماكنالي أنّ جرائم القتل في القرية قد توقفت وربط الجميع توقفها بدخولي إلى السجن أصبح الجميع على يقين بأنني أنا هو القاتل المتسلسل، حتى الطبيب جاكوب لم يجد ماكنالي ضده أيّ دليل يدينه أدركت أنني سأتعفن في السجن لا محالة، وجلّ فؤادي وضاقت نفسي، ما أصعب البقاء داخل مكان يضيق، استرددت طمأنة نفسي بحروف القرآن، أفكر بصمت وكلّي عجز كيف سأنتقم لقمري؟

ذات يوم نهضت من النوم على صوت الرجل العجوز يتأوه من شدة الألم، بللت ريقه وأخبرني أنه يحتظر صعقني هذا الخبر، لازمت رأسه مليا نطق الشهادة وأغلق عينيه وسافر إلى ربه شكرا لك أيها العجوز الذي آنست وحدتي وبقيت معي رحمك الله يا أبي الثاني، ناديت على حراس السجن أخذوا جثته، بقيت وحيدا في زنزانتي هل سينتهي بي المطاف هكذا؟ هل سأموت هنا ميتتة شنيعة.

نمت تلك الليلة بصعوبة وراودني حلم غريب، رأيت امرأة ميّتة في الغابة مبتورة الساق نهضت من نومي فزعا، يبدو أنّ الجرائم ستعود من جديد

طردت هذه الأفكار من مخيلتي وأمضيت أيامي في انتظار جاك ماكنالي وأخباره، زارني يوم الخميس كالعادة وألقى على مسامعي الخبر الذي أثلج صدري، حدثت جريمة أخرى بعد ثلاث سنوات سيتم إعادة النظر في قضيتي.

إحتار المحققون في قضية سيف وضعوا عديد الاحتمالات منها أنّ سيف له شريك يساعده أو أنّ سيف ليس هو القاتل منذ البداية، القاتل الحقيقي بعيد عن الشبهات تماما، يجب أن أنقذ سيف من الخراب الذي يعيشه.

أجريت أنا وسهى التحريات وأثبتنا أنّ ليس لسيف من يساعده، قررت المحكمة النظر في القضية مرة أخرى.

أفرج عن سيف بعد ثلاث سنوات من العذاب مع المراقبة القانونية.

كنت في زنزانتي الكئيبة كعادتي أعدّ الأيام وأعانق طيف حبيبتي، إلى أن دخل الحراس عليّ وأخبروني بقرار الإفراج، خرجت من السجن بعد ليالي طويلة من القهر وأيام تعيسة، وجدت جاك ماكنالي في انتظاري شعرت بالأذى من أشعة الشمس التي لم أرها منذ مدة، تغيرت بغداد في ثلاث سنوات، ملابس مختلفة، هواتف محمولة كأنني بقيت في السجن عشرين سنة، توجهت مع المحقق إلى بيت أهلي فور دخولي قبلت يد أمي وعانقت أبي، أخبراني أنهما على يقين أنني لم أفعلها طلبت منهما العودة معي إلى القرية لكنهما رفضا، أمضى جاك ماكنالي الليلة معي وساعدني على حلاقة لحيتي وتغيير مظهري، طبخت أمي أشهى الأطباق رغم أنها مريضة واعترفت لها أنني اشتقت لها ولأبي.

أشعر الآن بنوعين من الندم الأول موت قمر والثاني ابتعادي عن أهلي وبقائي وحيدا، لقد سيطرت على الكيان وازنت بين الشر والخير بداخلي وأصبحت شخصا آخرا شخص تمنيت لو أنّ قمر رأته قبل أن تموت.

في الصباح التالي عدت مع جاك ماكنالي إلى قريتي واسترجعت ذاكرتي كلّ اللحظات التي عشتها هنا عزفي بالكمان أول شجار لي أمام قمر، شعرت وكأنما روحها مرتبطة بهذه الأحياء، كالعادة كانت نظرات أهل القرية لي تعبر عن الازدراء، لازال الجميع يعتقد أنني القاتل، ذهبت مع جاك ماكنالي إلى منزله فمنزلي يذكرني بأحداث لا أريد تذكرها وأولها منظر الجثة لقد فهمت الوجه الحقيقي للحياة، فهمت أنّ المواجهة أولى من الهروب

لقد كانت العراق محط اهتمام جاك ماكنالي وأخبرني أنه طيلة السنوات الفارطة كان يذهب للمسجد كثيرا لقد أيقن أنّ الدين الحق هو دين الإسلام وقرر اعتناقه، شعرت بالسعادة فما أجمل العودة إلى خالق الكون ما أجمل ديننا، ما أجمل عربيتنا وتقاليدنا، ما

أجمل رائحة بلادنا الطيبة. ذهبت معه إلى المسجد بعد صلاة العشاء وأخيرا اعتنق ديننا ونطق الشهادة أهديته دشداشة جميلة كم لاقت به، أثناء خروجنا من المسجد رأيته نعم إنه نفس الخيال الذي حلمت به وهو يقتل المرأة عندما كنت في السجن، ضحك معي بسخرية لكن قررت الانتقام منه ولو كلفني هذا التضحية بحياتي، يجب على المرء أحيانا أن يضحي بأغلى ما لديه من أجل شخص يحبه.

طوال المدة التي بقيت فيها في منزل جاك لاحظت أنه لازال يعاني من الأرق، أوه نسيت أن أخبركم بعد أن اعتنق صديقنا دين الإسلام أصبح اسمه أسامة، يبدو أنه عالق في الماضي مثلي ولم يقدر على الهروب من الأحداث القديمة، كما لو أنّ عقلي وعقله تعلقا بزمن مضى ولن يعود، يفاجئنا القدر دائما بأحداث لم تكن في الحسبان ومشاعر لم تكن في الوجدان، تشبّ داخلنا نيران لا تخمد تلاحقنا على مر الأزمان،كم أهوى تذكر ذلك المكان حين عزفت لحبيبتي بالكمان لا تفارقني ذكراها حتى في المنام.

رسمت في رأسي خطة شيطانية توجهت نحو منزل الغابة وفتحت القبو الذي فيه وبدأت بتجهيز المكان للزائر الذي سأحضره اقتنيت منوما حبالا وشريط لاصق، لم يشك ماكنالي في أمري لأنني أخبرته بقصة العجوز وسيطرتي على كياني، صحيح أنني سيطرت عليه لكن لن أتراجع عن انتقامي، أريد الثأر لها ولو دفعت حياتي ثمنا، لقد علمتني قمر الكثير ورغم أنني كنت أخاف المشاعر إلا أنني أدركت بعد فوات الأوان أنه يجب علينا الرضا بهذا الإحساس فالمشاعر أودعها الله فينا، أيقنت بفضلها أنّ الأدرينالين لابد منه ولكن علينا أحيانا ارتشاف القليل من الدوبامين، قررت ارتداء السعادة من أجلها رغم أنني للحزن أميل، لازلت أراها في أحلامي علقت صورها في جدران قلبي لم تفارقني في

الحياة ولم تترك يدي في الممات، أزور قبرها كل صباح وأعزف أمامه بأوتار الكمان أحكي لها قصصا وحكايات أحكي لها عن عذابي الذي كان بين القضبان وأتوسل لها أن تسامحني لأنني السبب الأول والأخير في هذه الوفاة، أعدها كل مرة بالانتقام لقد أصابني سهم فراقها استهدف قلبي وسكن فيه وبقيت على الأرض محطما لا أعرف إلى متى سيستمر هذا الألم وفي كل سجود دعوت الرحمان ألّا ينسى روحي الجريحة، لم أمدّ يدي لأحد فأضحيت وحيدا أعيش على حطام الذكريات وأنثر روحي في كل المحطات قلبي يأسى حين يتذكر لحظة الهجر دون وداع وعقلي يجبره على الصمت وتقبل الواقع كي لا نخسر الانتقام، قوة مزيفة وضحكة باهتة، رداء قاتم السواد هكذا أصبحت، أطارد الحقيقة فأنا على يقين أنها مهما كانت بعيدة فهي مني قريبة.

الفصل 20 :

خطة شريرة

تذكرت زوجة العجوز الذي كان معي في الزنزانة وابنته فقد أوصاني بزيارتها لو خرجت من السجن في يوم ما، لقد كان على ثقة أنني سأخرج من هذه القضبان وإن طال الزمن فالحقيقة ستظهر وربّ الخلق لا يرضى ظلم عباده، في الصباح جهزت أمتعتي قصد السفر نحو المدينة التي أخبرني عنها ذلك السيد العجوز، رغم أنني أريد النوم فقط كي أنسى قليلا مما حدث لكن كانت هذه رغبته الأخيرة ويجب عليّ تحقيقها لقد ساعدني المسكين كثيرا، أخبرني أنّ هناك قصة شيقة تنتظرني لو ذهبت لزيارتهما

وأنا ملك الفضول لا أقوى على تجاهل الحكايات والألغاز.

وصلت في صباح اليوم التالي إلى وجهتي هي مدينة جميلة يبدو أنّ الإستعمار قد سيطر عليها فالجميع هنا يشبهون الأجانب في كل شيء الثياب المكياج وحتى التصرفات واللهجة، سألت عن منزل السيد العجوز.

بعد وقت طويل من البحث أخيرا وجدته ويا لدهشتي بمنزله، إنه قصر كبير طرقت الباب فتحته لي فتاة جميلة جدا، أخبرتها قليلا عن قصتي أنني كنت في نفس الزنزانة مع والدها ذرفت الدموع فور سماعها بموته أذنت لي بالدخول وأسرعت في مناداة أمها، جلسنا في غرفة المعيشة وفي يد كل منا فنجان قهوة مر وعلى الطاولة بعض الحلوى التي لم يتمكن أحد من تذوقها، أخبرتهم عن كلّ الكلمات التي أراد مني العجوز قولها لهم كان حديثا شيقا حزينا مليئا بالدموع، حياة غريبة وحين أنهيت قصة الرجل سألتني ابنته عن سبب

وجودي في الزنزانة فأخبرتها عن قمر وقضايا القتل التي كانت تحصل في قريتي، في تلك الأثناء تذكرت فضولي

وأخبرتهما أنّ السيد العجوز أخبرني أنّ قصة شيقة في انتظاري.

نظرت الأم في ابنتها وقالت في هدوء: "إذا يريد منا أن نطلعه على القصة."

طأطأت الأخرى برأسها وهنا بدأ الحماس.

قالت السيدة العجوز:

سبب دخول زوجي إلى السجن ليس قضية القتل فقط، بل لأنه أيضا سجان هارب من سوريا، قبل سنوات تمّ اعتقاله وللأسف خان زوجي بلده العزيز وأصبح سجانا دنيئا يعذب الناس ويقتلهم، لقد تعلم كل أساليب التعذيب مات ضميره وأصبح للأعداء رفيقا، في أحد الأيام تمّ اعتقالي وضعوني أمامه ليعذبني ولكن شاء القدر أن يقع في حبي ويدخل في صراع طويل كونه سجانا يخدم النظام الفاسد وبين مشاعره اتجاهي، التي حركت ضميره الذي مات ولكن فاز في صراع المشاعر حبه لي وبدأ في التخطيط للهروب، لأنه سجان يعرف السجن معرفة جيدة تمكنا من الهروب من سوريا إلى العراق في رحلة محفوفة بالخطر، تزوجنا هنا وأخفينا سرنا عن الجميع، لكنه قتل زوج ابنته بعد تعذيبه بنفس الطرق فعرف الجميع أنه سجان سابق لذلك لم يرحمه أحد وتعفن في السجن حتى وافته المنية.

سيف: "قصة شيقة حقا لكن كيف بنيتم كل هذه الثروة".

السيدة العجوز: "هذه قصة أخرى لا دخل لك فيها يا ولدي".

احترمت رأيها وصمتت، تبا لهؤلاء الأشخاص الذين يطمحون لسرقة بلداننا وأوطاننا.

صعدت نحو غرفة جهزوها لي دهشت من جمال المنزل وتصميمه، غرقت في النوم أثناء التفكير في قمر وكم يقتلني شوقي لها.

في الصباح الباكر خرجت إلى الحديقة أفكر في الانتقام فقط، أريد قتل الرجل الذي أخذ روح زوجتي، دخلت إلى المنزل لأجد الابنة الجميلة جالسة على كرسي غرفة المعيشة وطلبت مني البقاء معها لبعض الوقت وافقت على ذلك، دار بيننا حديث عن قمر ونبهتني لخطة يمكنني من خلالها الانتقام من القاتل.

حملت امتعتي فورا ودّعت السيدة وابنتها، توجهت نحو قريتي وفي رأسي تدور الخطة الشيطانية، سوف أنتقم أخيرا من قاتل قمر.

وقف سيف أمام من خطفه في قبو منزله ونظر الاثنان إلى بعضهما نظرة كلها شر وحقد دفين، في جوّ من الهدوء .. الخوف .. السكون، جوّ تمكن فيه الخاطف والمخطوف من سماع دقات قلب الآخر، هل هي النهاية؟ من سيموت؟ قاتل متسلسل أم شاب يريد الانتقام؟ راودته فكرة اختطاف قاتل اقترف عديد الذنوب في حقّ البشر، يجب على السكين أن يفارق الدماء، يجب أن تفارق الدقات القلب، هي رحلة نحو الموت، المفاجئ أنّ جاك ماكنالي كان على حقّ الشخص الذي قام بكل هذه الجرائم هو الدكتور جاكوب، نزع سيف الشريط اللاصق عن فمه وقال:

"اعترف بكل ما فعلته فأنت الآن بين يديّ" وألقى على رأسه دلوا من الماء البارد، ضحك جاكوب ضحكة هستيرية ، تلتها صوت صفعة وجّهها سيف نحو وجنتيه، ثم جلس بعيدا عنه وبدأ الدكتور بالتكلم:

"أول جريمة قمت بها هي حين أخذت روح السيدة ماكنالي بالخطأ، صدقني بالخطأ كنت طبيبا مشهورا في أمريكا وأعطيتها جرعة خاطئة ماتت بسببها، لكن حين رأيت جثتها فوق سرير العمليات شعرت بالسعادة ولم أخبر أحدا عن وفاتها، لأنني طبيب وعبقريّ شاهد الكثير من أفلام القتلة دبرت الأمر ومسحت آثار جريمتي، لكنني عشقت موضوع القتل بعدها، تمنيت أن أصبح قاتلا متسلسلا تتحدث عنه كل الجرائد، سافرت بعدها إلى العراق قتلت النساء، إنهنّ مريضاتي وكنت أرى وحدتهنّ وعبوسهنّ ولهذا قررت تخليصهنّ من بؤسهن، غيرت طريقة القتل في كل مرة كي أشتت انتباه الشرطة".

. "ماذا عن قمر لماذا "اخترتها؟"

"لقد سمعت من أهل القرية أنك مشتبه به، قررت قتلها كي أضعك محلا للشبهة أكثر فأكثر، راقبتها وكانت أسهل ضحية فتاة تقطن وحدها في غابة، حين طرقت بابها ظنت أنك أنت وفتحته بسعادة، تفاجأت بي واقفا أمامها والذعر في مقلتيها، خلصتها من خوفها بطعنة سكين وماتت فوق السجادة".

مرت لحظات بدا فيها سيف عاجزا عن الكلام، لم يكن ماكنالي على خطأ حين نثر في وجه هذا الطبيب الاتهامات، كان من الواضح منذ البداية أنّ جاكوب هو الفاعل فهو الوحيد الذي كانت له صلة بكل الجرائم، عرفته قمر من شكل عينيه ولم تقوى على نطق اسمه، هكذا انكشف السر الغامض الذي حير محققي القرية، لم يتفوه سيف بكلمة بعد اعتراف الطبيب، قيّده جيدا وتركه، خرج لم يعد له لعدة أيام بقي دون أكل

أو حتى شرب.

تمّ تقديم بلاغ لمكتب سهى وماكنالي باختفاء الطبيب لم يبعد ماكنالي (أسامة) سيف عن باله وشك في أنه أصاب جاكوب بمكروه وقرر مراقبته، وفي مساء يوم ما لاحظ أنه خرج من المنزل مرتديا قفازات خرج خلفه، لاحقه حتى دخل منزله ودخل خلفه من النافذة التي نسيها سيف مفتوحة، عرف مكان القبو واستنتج أنّ جاكوب داخله.

عزمت على قتل هذا الوغد، دخلت القبو وكلّي حمم نارية تريد حرقه نزعت عنه كل القيود وضربته ضربا مبرحا لم يرد عليّ بأيّ شيء، حملت السكين وفي اللحظة التي وضعتها على عنقه سمعت صوتا يناديني "سيف توقف"، كان المحقق جاك ماكنالي وقال لي: "لو كانت قمر هنا لأوقفتك يا بنيّ إرمي السكين من يديك، ابتعد عنه، لا تلطّخ يديك بالدماء أتركه لربه"،

في تلك اللحظة تجسدت قمر أمامي، أمسكت يديّ وأبعدت السكين عني وضعت يديها على قلبي وابتسم ثغرها شعرت بحرارة جسدها وشممت عطرها، ابتعدت عنه ومازالت صورة قمر عالقة بين عيني، قالت لي أنها معي ولم تتركني لحظة واحدة، اعترفت لها بحبي قلت لها أنني في شوق لصوتها وطيبتها وعطفها، اكتفت بالابتسامة، غادرتني صورتها على صوت جاك ماكنالي الذي كان يحذرني من جاكوب، لقد حمل السكين رغبة في اغتيالي وقفت بكامل قوتي وأبعدت السكين عني، نزل جاك ماكنالي ووضع الأصفاد على يديه، شعر كلانا بالسعادة لقد انتقمت لزوجتي وهو أيضا.

حضرت محاكمة الطبيب جاكوب، نظرا للأدلة التي وجودها في عيادته رداء أسود ومواد تنظيف، قفازات والمنشار الذي كان يبتر به ساق كل ضحية. جريمته القتل من الدرجة الأولى مع سبق الإصرار والترصد، عقابه الموت شنقا حتى الموت، أمام الناس كي تبقى قصته عبرة لمن يعتبر. تم عرض جاكوب على الطبيب النفسي، عرفوا أنه مضطرب منذ طفولته فقد تعرض للعنف من والده، كبر بشخصية انتقامية أودت بحياة الكثيرين.

في صباح يوم الجمعة الثاني من فبراير

وقف جاكوب على المصطبة بثوبه الأبيض، موقف يقشعر له البدن، وضعوا على رأسه كيسا أسودا وتمّ إعدامه شنقا حتى زهقت روحه. صحيح أنها وفاة مؤسفة، لكن لم يتأسف عليه أحد فقد قتل أرواحا كالزهور، فرحت نورة وزوجها سالم لأنّ الحق قد ظهر في النهاية وأثبتت براءة سيف.

تغيرت نظرة أهل القرية اتجاهه، أصبح الجميع يحبه لأنه هو من كشف الغموض وفتح الستار لقد حلّ هذه القضية، التقى سيف بأسامة (جاك ماكنالي) شكره على مساعدته له قال له أنه يستحق اسم بوارو، جلس الاثنان سويا وحكى له سيف عن آخر حلم، أخبره أنه رأى القاتل بوضوح وكان الدكتور جاكوب، لذلك قرر خطفه من عيادته، لينتقم منه ويأخذ ثأر قمر بيديه.

الفصل 21 :

وداعا

تقدم جاك ماكنالي أي أسامة لخطبة سهى لأنه قرر تخطي الماضي والمضي في حياته، لما رآه في تلك الفتاة من ذكاء .. حياء .. حيوية ونشاط أخلاق فاضلة، قدم سيف إلى الخطبة والزفاف، كانت كل هذه الأحداث تذكره في قمر، في ليلة الزفاف بارك سيف لهما ونصحه ماكنالي بالمضي في حياته ونسيان ما حدث معه، طلب منه الخروج من حالة البؤس التي وقع فيها.

نام ماكنالي تلك الليلة لأول مرة دون جزع، أما سيف فقد تعلق قلبه بالخيال، يغمض عينيه في كل ليلة ويسمع إيقاع خطوات قمر لقد أحبها هذا مكنون قلبه، لكن أخذها القدر، تطوف بأحلامه ويردد اسمها كثيرا يردد في كل صلاة ليتني لم أطردها، ليتني لم أجرحها، ليتني عانقتها وبحت لها بحبي، سر ألمي وانكساري، ليتني أخبرتها أنّ وجودها هو سر سعادتي، ما فائدة التمني وقد رأى زوجته جثة بين يديه، ما فائدة الصراخ والنحيب على أنقاض الذكريات، ما فائدة أن نطلب من ميت أن يعود، لن يعود سوى في الخيال.

فما هذه الحياة التعيسة التي غرق فيها الفتى المسكين، يعيش على ما تبقى من ذكريات وصور من ماضي أليم، يكاد يفقد عقله يكلم الموتى ويتمنى عودتهم، لقد ألقى به الزمن في حفر أحزان وجروح لن تشفى، حتى شخصيته القوية لم تساعده على تخطي ما حدث.

لكن هذه هي الحياة فالشخص يصنعه الماضي، رغم ذلك يجب عليه أن ينسى ويلقي بالأحداث السيئة وراء ظهره ولو تعلق فيها لن يوجع سوى نفسه.

في إحدى الليالي قرر سيف أن يرتشف كأس الموت كي ينسى بعضا من آلامه وتفارقه الذكرى التي تنهش روحه، سرى ليلا تحت ضوء القمر دون أن يراه أحد، عازم على الانتحار دخل الغابة وتغلغل فيها حتى وصل لأعلى قمة جبل، وقف فيها والأمر الوحيد الذي أعمى بصيرته هو قمر تذكر في تلك اللحظة كل شريط حياته، تذكر العجوز الذي التقاه بالسجن، وقال أنا قادم إليك .. أنا قادم.

يتلاشى كل ما تمنيناه بشغف ويرحل مع الرياح وكما فعل الكثيرون من قبلي ها أنا ذا، أكتب وأعشق لعنة القلم، دقت قمر أبواب سيف سرقت من داخله الكثير، حركت فيه الشعور، كما شفى الزمن جاك ماكنالي، ما هذا الحب الغريب؟ ما هذا الاضطراب؟ الذي جعل من جاكوب قاتلا متسلسلا يسرق حياة النساء.

فلو طلبوا مني أن أكتب عن الحب سأحمل قلمي وأقول:

يا ليل قل للنفس وأكثر الملام

أنّ محاسن الحب سراب وآلام

ما العشق سوى أضغاث أحلام

ألزم الصمت وأقتل الكلام

فما الغزل سوى كذب أقلام

فيا ليت شعري للغيرة كاتم

يا أسفا على ظلام قاتم

أغرق فيه وأدعي الغرام

فإني أرى أنّ الحب أوهام

لم أرى عاشقا قد أعلن الصيام

عن حبه بل رأيتهم يكثرون الأقسام

يقسمون على بقاء الحب حيا بالأجسام

لا تكذبن يا قلب صرت مثلهم منذ أيام

تسير نحو من تحبه كل ليلة بإقدام

يا نفسي ستعودين مليئة بالأسقام

لو علم العشاق لغلقوا على قلوبهم بإحكام

أقسم لو علموا لربطوا الأقدام

لو علم العشاق لنقضوا عهد الحب ورفضوا الابرام

لو علموا ...

لو تتذكر يا قارئي العزيز بدأ سيف هذه الحكاية بتساؤل حول الشعور. أراد من خلاله إثبات أو نفي مقولة فلسفية، شبهت الشعور بالتيار الذي لا يتوقف، لقد وصل سيف إلى إجابة فما رأيك؟ هل اقتنع سيف أخيرا أنّ الأحاسيس موجودة؟ كما قال سير فرانسيس باكون: السؤال الجريء هو نصف الحكمة، أنا هنا أريد منك أنت أيضا أن تطرح السؤال حول نهايتي وتجيب بنفسك.

لعلها النهاية

تمت

الحمد لله

يسري في خافقي

تأرجح الفتى بين الحقيقة والخيال

مميز هو ليس كباقي الرجال

قويّ قطع أميالا وأميالا

ليحصل على بذرة سعادة

زرعها ولم يحصد سوى التعاسة.

ماذا لو سرى في خافقك كيان شرير يدفعك للشر؟

ماذا لو أقحمت نفسك في جرائم قتل متسلسل؟

ماذا لو ابتعد عنك الجميع واقترب منك شخص واحد؟

تبدأ هذه الحكاية مع بطلها سيف والذي سيجيب

عن هذه الأسئلة في رحلته.

هات يدك يا قارئي العزيز لنستكشف صفحات

روايتي "يسري في خافقي"

بوزيدة ملاك

Malak_malak171

إبداع أدبي
للنشر الإلكتروني